مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فهذا تفسيرٌ مختصرٌ لجزء "عمّ يتساءلون"، جمعته أثناء تدريسي لتفسير القرآن، وهي دروس كنت ألقيها على المصلين في مسجدي، وقد سقته على طريقة المختصرات في التفسير، وقد نشرته لغرض الاستفادة منه.

وقد حرصت على جعله تفسيرًا مختصرًا، ليسهل عليّ جمعه، وإلقاؤه، والرجوع إليه، ويسهل على المستمع فهمه.

واللهَ أسأل أن ينفع به الكاتب والقارئ، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

كتبه علي بن حسين الشرفي

انتهيت من مراجعته في ربيع ثاني / ١٤٤٢هـ

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة النبأ (٧٨)

(مكية، وآياتها أربعون، وقيل واحد وأربعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

(عمّ يتساءلون * عن النبإ العظيم * الذي هم فيه مختلفون * كلّا سيعلمون * ثم كلّا سيعلمون * ألم نجعل الأرض مهادًا * والجبال أوتادًا * وخلقناكم أزواجًا * وجعلنا نومكم سباتًا * وجعلنا الليل لباسًا * وجعلنا النهار معاشًا * وبنينا فوقكم سبعا شدادًا * وجعلنا سراجًا وهاجًا * وأنزلنا من المعصرات ماء ثجّاجًا * لنخرج به حبًّا ونباتًا * وجنات ألفافًا *).

قوله تعالى: (عمّ يتساءلون): أي: عن أيّ شيء يسأل أهل مكة بعضهم بعضًا، وعن حرف جرّ، وما استفهامية، وإذا دخلت ما الاستفهامية على حرف جر حُذفت الألف من ما، كقوله تعالى: "قالوا فيم كنتم"، وقوله: "فلينظر الإنسان مم خُلق"، وقوله: "وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني".

ولم تبدأ السورة بطريقة الخبر كأن يقال: "إنهم يتساءلون * عن النبأ العظيم"، إنما بدأت بطريقة الاستفهام لتفخيم الأمر.[١]

قوله تعالى: (عن النبأ العظيم). هذا بيانٌ للشيء المُستفهم عنه، والنبأ: قيل: هو الخبر، وعلى هذا فيكون العظيم صفة للنبأ، وقيل: إن النبأ هو الخبر العظيم، فلا يكون نبأ حتى يكون خبرًا عظيمًا، فيكون وصفه بالعظيم من باب التأكيد.

واختلفوا في هذا النبأ على قولين: أحدهما: – أنه القرآن، لأن الله تعالى يقول: (الذي هم فيه مختلفون) والمشركون لم يختلفوا في إنكار البعث، وإنما اختلفوا في القرآن، فمنهم من يقول إنه سحر، ومنهم من يقول إنه من الشعر، ومنهم من يقول إنه كهانة، ومنهم من يقول ألقاه عليه بعض الأعجمين، ومنهم من يقول غيرَ ذلك.

وإذا قلنا إنه القرآن فهو أعم من البعث، لأن إثبات البعث هو بعض ما جاء به القرآن.

والقول الثاني: – أن المراد بالنبأ هو البعث بعد الموت، لأن الله تعالى ذكر بعدها الآيات الدالّة على عظيم قدرته تعالى، فيكون المعنى: عن أي شيء يتساءل هؤلاء المشركون فيما بينهم ؟ إنهم

---

[١] وليس المراد بالتفخيم إعطاء الأمر أكبر من حجمه، ولكن بيان أنه أمرٌ عظيم. وهذا هو المراد من قولهم للتفخيم، أو للتعظيم، أو للمبالغة.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

يتساءلون عن النبأ العظيم وهو البعث الذي أخبر به القرآن الكريم، وهذا القول استظهره ابن كثير.

لكن هنا إشكال: كيف يكون المراد بالنبأ العظيم البعث، مع أن المشركين ليسوا مختلفين فيه ؟!.

وأجيب عن ذلك من ثلاثة أوجه: أحدها: – أنهم هم أنفسهم مختلفون في البعث، فقد هناك كانت قلّة قليلة من المشركين تؤمن بالبعث.

والثاني: – أنهم مختلفون في البعث، فمنهم من يقطع بإنكار البعث، ومنهم من يشكّ فيه.

والقولان السابقان يرون أن الضمير في قوله: "الذين هم فيه مختلفون" يعود على المشركين فقط.

والثالث: – أن الضمير يعود للمؤمنين والكافرين، فالمؤمنون يؤمنون به، والكافرون ينكرونه.

قوله تعالى: (كلّا سيعلمون * ثم كلّا سيعلمون). كلّا حرف زجر وردع، وكُرّر لتأكيد الزجر وتفخيمه.

وحذف مفعول "سيعلمون" للتعميم، والمراد بالتعميم أن المعمول قابل لأي معنى صحيح، فيكون المراد كلّا سيعلمون العاقبة السيئة لتكذيبهم، أو سيعلمون ما سيحل بهم من العذاب، أو نحو ذلك.

ثم ساق سبحانه تسع آيات بيّنات تدلّ على قدرته العظيمة ليدلّل على أن البعث حقّ، لأن القادر على إيجاد هذه الأشياء، قادر على إعادتهم إلى الحياة.

قوله تعالى: (ألم نجعل الأرض مهادًا). هذه الآية الأولى، والمهاد: مصدر بمعنى الفراش الموطّأ الممهّد، والمهد هو ما يوضع للصبي لكي ينام عليه، ووصفت الأرض بذلك لأنها مكان استقرار الناس، وراحتهم، وانتفاعهم.

والاستفهام هنا للتقرير، أي: لقد جعلنا الأرض كالفراش الممهّد، لتتمكنوا من الاستقرار عليها، ومن التقلّب فيها، كما يتقلّب الطفل في مهده، أي: فراشه.

قوله تعالى: (والجبال أوتادًا). هذه الآية الثانية، أي: وجعلنا الجبال أوتادًا في الأرض حتى لا تضطرب، والأوتاد جمع وتد، وهو ما يشدّ به الشيء حتى لا يتحرّك أو يضطرب، كما قال تعالى: "وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم".

قوله تعالى: (وخلقناكم أزواجًا). وهذه الآية الثالثة، والأزواج: جمع زوج. والمراد به هنا: الذكور والإناث. أي: ومن دلائل قدرتنا أننا خلقناكم ذكورًا وإناثًا لغايات عظيمة، منها استمتاع كلّ نوع بالآخر، ومنها حصول التناسل، ومنها حفظ النوع الإنساني من الانقراض، ومنها تخصيص كلّ صنف بعمل، فينتظم أمر المعاش في الأرض.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

قوله تعالى: (وجعلنا نومكم سباتًا). وهذه الآية الرابعة، والسبات له معنيان:

أحدهما: – مصدر بمعنى السبت، أي: القطع، يقال: سبت فلان الشيء سبتًا، إذا قطعه، أي: وجعلنا نومكم قطعًا لكم عن الحركة لترتاحوا.

والمعنى الثاني: – أنه السبات من السبت بمعنى الراحة والسكون، يقال: سبت فلان يسبت، إذا استراح بعد تعب، ومنه سمي يوم السبت، لأن اليهود ينقطعون فيه عن أعمالهم للراحة. والمعنى: لتحصل لكم الراحة، عن طريق النوم بعد عناء العمل. والمعنيان متقاربان.

قوله تعالى: (وجعلنا الليل لباسًا). وهذه الآية الخامسة، أي: ساترًا لكم، فهو يستركم كما يستر اللباس العورات.

قوله تعالى: (وجعلنا النهار معاشًا). وهذه الآية السادسة، أي: جعلنا النهار وقتًا تعيشون فيه، وتبتغون فيه من فضل ربكم.

قوله تعالى: (وبنينا فوقكم سبعًا شدادًا). وهذه الآية السابعة، أي: وأوجدنا فوقكم سبع سماوات قويّات مُحكمات، لا يصيبهن تشقّق على مرّ العصور.

قوله تعالى: (وجعلنا سراجًا وهّاجًا). وهذه الآية الثامنة، أي: وخلقنا في السماء سراجًا وهّاجًا، والمراد به الشمس، جمع الله فيها بين الضياء والحرارة لحاجة الخلق لهما، ففيها ضياء يضيء الكون، وفيها حرارة يحتاج إليها الخلق في أبدانهم، ولنضج ثمارهم، وتجفيف ثيابهم، ونحو ذلك.

قوله تعالى: (وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجًا). وهذه الآية التاسعة، إنزال الماء من المعصرات، والمعصرات – بضم الميم وكسر الصاد – جمع معصِرة – بكسر الصاد –. فيها قولان:

أحدهما: – أنها السحب التي تحمل المطر، يترل منها المطر، فيكون المعنى وأنزلنا من السحب مطرًا

والثاني: – أنها الرياح، فيكون المعنى وأنزلنا بالمعصرات إذا جاء وقت نزوله. والصحيح أن المراد السُحب، واختاره ابن جرير.

والثجّاج: نزول الماء متتابعًا.

قوله تعالى: (لنخرج به حبًّا ونباتًا * وجنات ألفافًا). (لنخرج به) بالماء الذي أنزله الله من المعصرات (حبًّا) يأكله الناس (ونباتًا) تأكله الأنعام. (وجنات ألفافًا). أي: ملتفّة من كثرة تداخل أغصانها ببعضها البعض. والألفاف قيل هو: اسم جمع لا واحد له من لفظه، كاسم الأوزاع للجماعات المتفرقة. وقيل: جمع لفيف، كأشراف وشريف.

فهذه تسعة أدلة أقامها – سبحانه – على أن البعث حقٌّ، منها ما يتعلق بخلقهم، ومنها ما يتعلق بنومهم، ومنها ما يتعلق بالأرض والسموات، ومنها ما يتعلق بالليل والنهار، ومنها ما يتعلق

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

بالشمس، ومنها ما يتعلق بالسحب التى تحمل لهم الماء الذي لا حياة لهم بدونه، وكلّها أدلة مشاهدة محسوسة تدلّ على عظيم قدرة الله تعالى، لا يستطيع عاقل إنكار واحد منها.

وبعد أن ذكر الآيات الدالة على قدرته على البعث، ذكر سبحانه البعث وما يحصل فيه من العظائم.

(إن يوم الفصل كان ميقاتًا * يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجًا * وفتحت السماء فكانت أبوابًا * وسُيّرت الجبال فكانت سرابًا).

بعد إيراد هذه الأدلة المقنعة على إثبات المعاد، أكّد سبحانه يوم البعث، وذكر أنه يوم الجزاء.

(إن يوم الفصل) هو يوم القيامة، سُمّي يوم الفصل لأن الله يفصل فيه بين الحق والباطل، ويجازى كل إنسان على حسب عمله. (كان ميقاتًا) الميقات مشتق من الوقت، وهو الزمان أو المكان المحدد لفعل شيء، ومنه مواقيت الحجّ الزمانية أو المكانية، والمراد هنا أن يوم القيامة هو وقت الثواب والعقاب.

(يوم ينفخ في الصور) الصور قرنٌ عظيم خلقه الله لذلك، ولم يذكر النافخ لأنه معلوم.

والمراد يوم نأمر إسرافيل بالنفخ في الصور النفخة الثانية، (فتأتون أفواجًا) أي: فتحيون ثم تخرجون من قبوركم، ثم تأتون جماعات، لا يتخلّف منكم أحد عن الحضور. قال الشيخ ابن عثيمين: "وهذه الأفواج – والله أعلم – بحسب الأمم كل أمة تدعى إلى كتابها لتحاسب عليه".

(وفتحت السماء) فتحت بالتشديد والتخفيف، أي: شُقّقت. (فكانت أبوابًا) صارت كالأبواب فى سعتها وكثرتها، والمراد من فتحها نزول الملائكة (وسُيّرت الجبال). أي: وحركت الجبال من أماكنها بعد تفتتها. كقوله تعالى: ويوم نسيّر الجبال وترى الأرض بارزة" وقال تعالى: "وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب". وقال تعالى: "وتسير الجبال سيرًا". (فكانت سرابًا) أي: صارت كالسراب في خفتها، والسراب هو ما يظنه الرائي ماء وهو ليس بماء.

وبعد هذا البيان البديع في ذكر ما يحصل يوم البعث، أخبر سبحانه عن جزاء الكافرين، وجزاء المتقين فى هذا اليوم.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

(إن جهنم كانت مرصادًا * للطاغين مآبًا * لابثين فيها أحقابًا * لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا * إلا حميمًا وغساقًا * جزاء وفاقًا * إنهم كانوا لا يرجون حسابًا * وكذبوا بآياتنا كذابًا * وكلّ شيء أحصيناه كتابًا * فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابًا).

(إن جهنم كانت مرصادًا). أي: إن جهنم تترقّب الكفار. وقيل: أي: إن جهنم كانت مُعدّة، (للطاغين) أي: الكافرين (مآبًا) أي: مرجعًا يرجعون إليها فيدخلونها. وقد قيل إن الرصد إنما يكون لخزنة جهنم، وليس لجهنّم، وظاهر الآية أنه لجهنم، والأصل بقاء الظاهر على ما هو عليه، ولا قرينة تستدعي صرف اللفظ عن ظاهره.

(لابثين) حال مقدرة أي: مقدرًا لبثهم (فيها أحقابًا) جمع حُقب بضم أوله، وقد اختلف في عددها، فقيل ثمانون سنة، وقيل غير ذلك. وقد اختلفوا: هل هذه الأحقاب مقدّرة أو غير مقدّرة ؟ على قولين، والصحيح أنها غير مقدّرة، وإليه يميل شيخ الإسلام ابن تيمية، والمراد أنهم سيبقون فيها دهورًا لا نهاية لها.

(لا يذوقون فيها) أي: لا يذوقون في جهنم شيئًا يخفّف عنهم حرّها، لا (بردًا) أي: لا هواءً باردًا. (ولا شرابًا) يطفئ عطشهم، فنفى الله سبحانه وتعالى عنهم البرد الذي تبرد به ظواهر أبدانهم، والشراب الذي تبرد به أجوافهم.

ولما كان نفي البرد والشراب يوهم أنهم لا يذوقون شيئًا آخر قال: (إلا حميمًا) ماء حارّ بلغ الغاية في الحرارة، وهو مستثنى من البرد، (وغساقًا) بالتخفيف والتشديد، وهو ما يسيل من صديد أهل النار، مستثنى من الشراب. (جزاءً وفاقًا) موافقًا لعملهم، فالشرك أعظم الذنوب، وجهنم أعظم العذاب، فلم يظلمهم الله تعالى. (إنهم كانوا لا يرجون حسابًا) أي: لا يخافون الحساب لإنكارهم البعث. (وكذّبوا بآياتنا) الشرعية كالقرآن، والكونية كالشمس والقمر ونحوهما (كذّابًا) تكذيبًا. قال البغوي: "قال الفراء في "معاني القرآن": "هي لغة يمانية فصيحة، يقولون في مصدر التفعيل فعّال وقال: قال لي أعرابي منهم على المروة يستفتيني: الحلقُ أحب إليك أم القصّار؟".

(وكلّ شيء) من أعمال العباد قد (أحصيناه) أي: كتبناه عليهم لنجازيهم عليه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشرّ. والمراد ما يكتبه الملكان من الحسنات والسيئات كما قال تعالى: "أحصاه الله ونسوه". (كتابًا) توكيد. (فذوقوا) أي: فيقال لهم عند العذاب: ذوقوا جزاءكم (فلن نزيدكم إلا عذابًا) فوق عذابكم. وهذا يدلّ على مضاعفة العذاب.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

(إن للمتقين مفازًا * حدائق وأعنابًا * وكواعب أترابًا * وكأسًا دهاقًا * لا يسمعون فيها لغوًا ولا كذابًا * جزاءً من ربك عطاء حسابًا * ربّ السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابًا * يوم يقوم الروح والملائكة صفًّا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا * ذلك اليوم الحقّ، فمن شاء اتّخذ إلى ربه مآبًا * إنا أنذرناكم عذابًا قريبًا، يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابًا *).

(إن للمتقين) الذين عملوا بطاعة الله امتثالًا للأوامر، وتركًا للزواجر. وتقديم الجار والمجرور يوحي باختصاصهم بهذا الثواب العظيم. (مفازًا). مكان فوزٍ يفوزون فيه، وهو المكان الذي يسكنون فيه في الجنة. وقد بيّن هذا المكان الذي يفوزون فيه، وما أعدّ الله فيه من النعيم فقال: (حدائق) أي: لهم في هذه الجنات التى ظفروا بها حدائق، أي: بساتين عظيمة، فيها ماء، وأشجار مثمرة، وظلال. (وأعنابًا) الأعناب جمع عنب، وهو الكرم، وخصت الأعناب بالذكر، لأنها من أعظم الفواكه عند الناس، وأحبّها إلى النفوس.

(وكواعب) الكواعب: جمع كاعب، وهن اللواتي تكّعب ثديهن، وأصل اللفظة من الاستدارة، والمراد أن أثداءهن نواهد كالرمان، ليست متدلية إلى أسفل، ويُسمّين نواهد وكواعب، لأنها في تلك السن يتكعب ثدياها، أي: يستديران مع ارتفاع فلا يترل. (أترابًا) الأتراب: جمع تِرْب – بكسر التاء وسكون الراء – وهو المساوي لغيره في السنّ، وأكثر ما يطلق هذا اللفظ على الإناث. والمراد أنهن فتياتٌ في ريعان الشباب، قد تقاربت أعمارهن، وتساوين في الجمال والنضارة وحسن الهيئة.

(وكأسًا دهاقًا) أي: مليئة ومتتابعة. يقال دهق الحوض وأدهقه، إذا ملأه حتى فاض من جوانبه. (لا يسمعون فيها) أي: لا يسمعون في الجنة (لغوًا) أي: كلامًا ساقطًا لا يعتدّ به. (و) لا يسمعون كذلك (كذابًا) أي: تكذيبًا.

(جزاء من ربك) أي: ثوابًا من ربّك، "جزاء" منصوب بفعل محذوف من لفظه، و"من" ابتدائية. أي: هذا الجزاء العظيم للمتقين هو من ربّك، الذي هو ربّ السموات والأرض وما بينهما وما فيهما.

(عطاء) على سبيل العطاء أي: الإحسان والتفضّل. (حسابًا) صفة للعطاء وهو بمعنى كافيًا، تقول العرب: "أعطاني فأحسبني" أي: كفاني. ومنه "حسبي الله"، أي: الله كافيّ. وقيل: حسابًا بمعنى كثيرًا، وقيل إن المراد على حسب أعمالهم. قال صاحب "الكشاف": "و"حسابًا" معناه "محسوبًا" أي: كافأهم الله على أعمالهم الحسنة في الدنيا مكافأة محسوبة، على قدر أعمالهم الطيبة".

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

(ربّ السموات والأرض) بجرّ لفظ "ربّ" وبرفعه وقد قرئ بالاثنين. بالجرّ على أنه بدل "من ربّك"، وبرفعه على أنه خبر لمبتدأ محذوف، وقيل على أنه مبتدأ وخبره الرحمن.

(لا يملكون منه خطابًا) لا يقدر أحد منهم أن يخاطبه إلا بإذنه، كما قال تعالى: "يوم يأت لا تكلّم نفسٌ إلا بإذنه". فلا يشفع أحدٌ لأحد إلا بإذنه تعالى. فهو ربّ كل شيء. والخلق كلّهم خاضعون له، ولا يملك أن يفعل ذلك إلا بمشيئته.

(يوم يقوم الروح) هو جبريل على الصحيح، كما قال تعالى: "نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين"، فيكون من باب عطف العام على الخاص. وقيل: إنه ملك من الملائكة، وقيل: المراد أرواح بني آدم، ورجّحه ابن كثير.

(والملائكة صفًّا) أي: يوم يقوم جبريل ومن معه من الملائكة بين يدي خالقهم قيام تذلّل وخضوع، وهم في صفوف منتظمة، وجاء في الحديث: "تنزل ملائكة السماء الدنيا فتحيط بالخلق، ثم ملائكة السماء الثانية من وراءهم، ثم ملائكة السماء الثالثة، ثم ملائكة السماء الرابعة، ثم ملائكة السماء الخامسة، وهكذا يقومون صفوفًا لا يعلم عددهم إلا الله.

(لا يتكلّمون) أي: لا يملك أحد أن يخاطب أحدًا يوم القيامة لا بشفاعة ولا غيرها. (إلا من أذن له الرحمن) إلا بإذنه تعالى. (وقال صوابًا) أي: وكان كلامهم حقًّا. والمقصود من الآية الكريمة بيان أن جميع الخلائق يكونون في هذا اليوم تحت حكم الله، وأنهم لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًّا إلا بإذنه تعالى.

(ذلك اليوم الحقّ) اسم الإشارة يعود إلى يوم البعث، والمراد أن ذلك اليوم الذي يقوم الناس فيه لله رب العالمين، آتٍ لا ريب فيه. (فمن شاء اتّخذ إلى ربه مآبًا) الفاء هنا فصيحة، ومفعول المشيئة محذوف، أي: لقد بيّنّا لكم، فمن شاء منكم أن يتّخذ إلى ربّه مرجعًا حسنًا وطريقًا إلى رضاه، فليتّخذه الآن، من قبل أن يأتي هذا اليوم الذي لا بيع فيه ولا خلال.

(إنّا أنذرناكم) أي: إنا أقمنا عليكم الحجّة فأنذرناكم، والإنذار: الإخبار بحصول شيء مخوف قبل حصوله، في وقت يمكن تجنّبه فيه.

(عذابًا قريبًا) سيكون يوم القيامة. (يوم ينظر) يرى (المرء) الإنسان (ما قدّمت يداه) أي: ما قدّمت جوارحه كلها من الأعمال من خير وشرّ. (ويقول الكافر) جنس الكافر وليس كافرًا معيّنًا (يا ليتني كنت ترابًا). أي: ويقول الكافر في هذا اليوم – على سبيل الندم – يا ليتني كنت في الدنيا ترابًا، ولم أُخلق بشرًا، ولم أبعث ولم أحاسب، أو يكون المراد يا ليتني صرت ترابًا كما تصير البهائم. وذلك أنه إذا كان يوم القيامة مُدّت الأرض، وحشرت الدوابّ والبهائم والوحوش، ثم

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

يجعل القصاص بين البهائم حتى يقتصّ للشاة الجمّاء من الشاة القرناء، فإذا فرغ من القصاص قيل لها: كوني ترابًا، فعند ذلك يقول الكافر: "يا ليتني كنت ترابًا".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والحديث في قول الكافر يوم القيامة: "يا ليتني كنت ترابًا" لما رأى من جعل البهائم ترابًا معروف، وما أعلم فيه خلافًا".

وهناك فرق بين من يتمنّى الموت في الدنيا شفقةً، وبين من يتمنّى الموت عند الحساب الشديد ندمًا حين لا ينفع الندم.

سورة النازعات (٧٩)

(مكية وآياتها ستٌّ وأربعون)

بسم الله الرحمن الرحيم

(والنازعات غرقًا * والناشطات نشطًا * والسابحات سبحًا * فالسابقات سبقًا * فالمدبرات أمرًا * يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة * قلوب يومئذٍ واجفة * أبصارها خاشعة * يقولون أإنا لمردودون في الحافرة * أإذا كنا عظامًا نخرة * قالوا تلك إذًا كرّة خاسرة * فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة).

هذه السورة الكريمة أقسم سبحانه فيها بالملائكة على إثبات البعث، والحشر. ثم ذكر قصة موسى لأمرين: تسليةً لنبيّه – صلى الله عليه وسلم –، وبيانًا لصبر الأنبياء على التكذيب، وتذكيرًا للمشركين بعاقبة فرعون وغيره من المكذّبين.

ثم بيّن لهم قدرته العظيمة على خلق الأشياء العظيمة، والذي يستدل به على قدرته التامّة على بعث الموتى.

والواو في هؤلاء الآيات واو القسم، وجواب القسم محذوف دل عليه ما بعده، والتقدير: أقسم بهذه المخلوقات العظيمة أنكم ستبعثون.

(والنازعات). الملائكة، ومن أنواع نزعها أنها تنزع أرواح الكفار (غرقًا). إغراقًا في النزع، لأنها تنزع الروح من أقاصي الأجساد، وهو منصوب على المصدرية. [1] (والناشطات نشطًا). الملائكة، ومن أنواع نشطها أنها تنشط أرواح المؤمنين، أي: تسلّها برفق. وأصل النشط جذب الدلو من البئر.

---

[1] فالملائكة تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعنف فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلّته من نشاط. رجّحه ابن كثير وقال: "وعليه الأكثرون".

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

قال العلامة ابن القيّم في "التبيان":

"وأكثر المفسّرين على أنها الملائكة التي تنزع أرواح بني آدم من أجسامهم، وهم جماعة كقوله "توفّته رسلنا" وقوله: "إن الذين توفّاهم الملائكة". وأما قوله: "قل يتوفّاكم ملك الموت الذي وُكّل بكم": فأمّا أن يكون واحدًا وله أعوان، وإما أن يكون المراد الجنس لا الوحدة" ا.هـ [1]

(والسابحات سبحًا) الملائكة، التي تسبح في هذا الكون كما يسبح الغوّاص في الماء، أي: تنزل أو تنطلق بسرعة لتنفيذ أمر الله تعالى. (فالسابقات سبقًا) الملائكة، ومن سبْقها أنها تسبق غيرها في تنفيذ أمر الله تعالى. (فالمدبرات أمرًا) الملائكة بالاتفاق كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية، ومن وظائفهم تدبير شئون الخلائق، وتنظيم أحوالهم بالطريقة التي يأمرهم بها. فالله تعالى هو الذي أقدرهم على تدبير خاص بما وكلهم الله به، وهو تدبيرٌ تابع غير مستقل.

فهذه ثلاثة أمور يتميّز به تدبير الملائكة:

الأوّل: – أن تدبيرهم خاص في بعض الأمور، وليس في جميع الأمور.

الثاني: – أنه تابع غير مستقلّ.

والثالث: – أن الله هو الذي أقدرهم على هذا التدبير، ولو شاء لسلبهم هذه القدرة.

قال العلامة ابن القيّم في "التبيان":

"فأقسم سبحانه بالملائكة الفاعلة لهذه الأفعال إذ ذلك من أعظم آياته، وحذف مفعول النزع، والنشط، لأنه لو ذكر ما تنزع وتنشط، لأوهم التقييد به، وأن القسم على نفس الأفعال الصادرة من هؤلاء الفاعلين". [2]

وقد أجمع المفسرون على أن المدبّرات هي الملائكة. "ولم يختلفوا في هذا" كما قال ابن كثير في "التفسير"، وإنما اختلفوا فيما قبلها، وأشهر هذه الأقوال وأصحّها: أن المراد بهذه الموصوفات هي الملائكة، فالنازعات، والناشطات، والسابحات، والسابقات، والمدبرات صفات للملائكة، وهو اختيار العلامة ابن القيّم في "التبيان"، ورجّحه ابن كثير، وغيرهما، فالملائكة مقسم به محذوف، وجواب هذه الأقسام محذوف أي: لتبعثنّ يا كفار مكة.

(يوم ترجف الراجفة) النفخة الأولى بها يرجف كلّ شيء، أي: يتزلزل فوصفت بما يحدث منها.

وقد قيل: إن "يوم" متعلّق بجواب القسم المحذوف، والتقدير لتبعثن يوم ترجف الراجفة، وقيل: متعلّق بفعل محذوف تقديره اذكر أيها المؤمن يوم القيامة.

---

[1] "التبيان في أقسام القرآن" (ص ١٣٥).

[2] المصدر السابق.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

(تتبعها الرادفة). هي النفخة الثانية، وبين النفختين أربعون سنة، فالنفخة الأولى يموت فيها الخلق، والنفخة الثانية يبعث فيها الموتى. والمراد التذكير بيوم القيامة وما يحصل فيه. فاليوم واسع للنفختين وغيرهما، فصحّ ظرفيته للبعث الواقع عقب الثانية.

وجملة: "تتبعها الرادفة". حال من الراجفة، (قلوبٌ يومئذ واجفة) خائفة قلقة. (أبصارها خاشعة) ذليلة لهول ما ترى، والمراد بهذا قلوب المشركين الذين أنكروا فى الدنيا البعث والجزاء. كما قال تعالى: "فذلك يومئذٍ يوم عسير * على الكافرين غير يسير". فأما قلوب المؤمنين فهي مطمئنة في ذلك اليوم، كما في قوله: "لا يحزنهم الفزع الأكبر"، وقوله: "فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم". ويحصل لها من الطمأنينة بقدر ما عندها من الإيمان، والعمل الصالح.

ولفظ "قلوب" مبتدأ، وتنكيره للتكثير، وقوله "واجفة" صفة للقلوب، وجملة "أبصارها خاشعة" خبر ثان للقلوب.

(يقولون) أي: أرباب القلوب والأبصار استهزاء وإنكارًا للبعث (أإنا) بتحقيق الهمزتين (لمردودون في الحافرة) قيل هي النار، وقيل اسم لأول الأمر، ومنه رجع فلان في حافرته: إذا رجع من حيث جاء. والمراد أنرد بعد الموت إلى الحياة، وذكر سبحانه إنكارهم بصيغة المضارع "يقولون" للإشعار بأن هذا الإنكار مستمر منهم.

(أإذا كنا عظاما نخرة) "نخرة" صفة للعظام، يقال: "نخر العظم" – بفتح النون وكسر الخاء – إذا بلى وصار سهل التفتيت والكسر. وفي قراءة ناخرة، أي: بالية متفتتة، وجملة "أإذا كنا عظامًا نخرة" مؤكّدة للجملة السابقة عليها، التي يستبعدون فيها أمر البعث، وجواب إذا محذوف والتقدير نحيا.

(قالوا تلك) أي: رجعتنا إلى الحياة (إذًا) إن صحّت (كرّة) رجعة والكرّة: المرة من الكر بمعنى الرجوع، وجمعها: كرات. (خاسرة) ذات خسران. أي: لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرنّ، واسم الإشارة "تلك" يعود إلى الرجعة. ولفظ "إذا" جواب لكلامهم المتقدم. أي: أنرد إلى الحياة التي كنا فيها بعد أن نصير عظامًا نخرة، لو حدث هذا، لكانت عودتنا عودة خاسرة غير رابحة، يقصدون الاستهزاء بالبعث.

وقد ردّ سبحانه عليهم فقال تعالى: (فإنما هي) أي: الرادفة التي يعقبها البعث (زجرةٌ واحدة) أي: نفخة واحدة، والزجرة: المرّة من الزجر، وهو الصيحة المصحوبة بالغضب، يقال: زجر فلان فلانًا، إذا أمره بشيء، أو نهاه عن شيء بحدة وغضب. ووصف سبحانه الزجرة بأنها واحدة، لتأكيد صيغة المرة من معنى الزجرة، والمراد أن الأمر لا يقتضى سوى صيحة واحدة لا أكثر،

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

تبعثون بعدها من قبوركم للحساب والجزاء. والمراد بها: النفخة الثانية. وقوله: "فإذا هم" بضمير الغيبة، تحقيرًا لشأنهم عن استحقاق الخطاب.

فإذا نفخت (فإذا هم) أي: كل الخلائق (بالساهرة) الأرض المستوية، قال ابن كثير في "التفسير": "والصحيح أنها الوجه الأعلى للأرض" ا.هـ والمراد بها هنا: الأرض التي يحشر الله تعالى فيها الخلائق. فيكون حشر الناس عند قيامهم من قبورهم في هذه الأرض التي ماتوا ودفنوا فيها، ثم يحوّلون إلى الأرض التي تُسمى الساهرة يحاسبون عليها.

وفيما تقدم حديث بليغ عن أهوال يوم القيامة، وعن أحوال المجرمين في هذا اليوم العسير.

وصدّر سبحانه حشرهم بإذا الفجائية فقال: "فإذا هم بالساهرة" ليعلمهم بأن اجتماعهم هذا سيكون في غاية السرعة والخفة، وأنه سيتحقّق في أعقاب الزجرة بدون أقلّ تأخير.

(هل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربّه بالواد المقدس طوى * اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكّى * وأهديك إلى ربك فتخشى * فأراه الآية الكبرى * فكذّب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى * إن في ذلك لعبرة لمن يخشى *).

ذكر القرآن الكريم جانبًا من قصة موسى مع فرعون، فقال تعالى: "هل أتاك حديث موسى".

ومناسبة ذكر قصة موسى بعد إنكار كفار قريش البعث، من وجهين:

الأول: – التسلية على النبي – صلى الله عليه وسلم – حيث بيّن القرآن أن موسى تحمل المشقة في دعوة فرعون إلى التوحيد.

الثاني: – تذكير لكفار قريش بأن فرعون كان أقوى منهم، فلما تمرّد على موسى، أخذه الله تعالى نكال الآخرة والأولى، فكذلك هؤلاء المشركون إن أصروا على تمردهم، أخذهم الله كما أخذ من قبلهم.

والخطاب للنبي – صلى الله عليه وسلم –، ويدخل فيه كل من يصلح له. والمقصود من الاستفهام في قوله: "هل أتاك حديث موسى" التشويق إلى الخبر.

والمعنى: هل وصل إلى علمك خبر موسى مع فرعون ؟ إن كان لم يصل إليك فنحن نقصّ عليك من خبره، فاسمعه لتزداد ثباتًا على ثباتك، وثقةً في نصر الله تعالى.

(هل أتاك) يا محمد (حديث موسى) خبر موسى مع ربّه ومع عدوّه، وقوله: "حديث موسى" هو العامل في إذ، و(إذ) ظرف متعلّق بلفظ "حديث". (ناداه ربه بالواد) الوادي هو المكان المنخفض بين مكانين مرتفعين. (المقدس) المطهّر (طوى) اسم الوادي ورجّحه ابن كثير. وهو جبل طور

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سيناء، وهو البقعة المباركة، والمعنى: هل بلغك – أيها النبي – خبر موسى، حين ناديناه وهو بالواد المقدس طوى، الذي هو بجانب الطور الأيمن، بالنسبة للقادم من أرض مدين التي هي في شمال الحجاز. كما في قوله: "فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين".

(اذهب إلى فرعون إنه طغى) مقول لقول محذوف، أي: قلنا له: "اذهب إلى فرعون"،

وفرعون: لقبٌ لكل ملك من ملوك مصر في ذلك الزمان، وطغى أي: أنه تجاوز الحدّ بكفره وعصيانه.

(فقل هل لك) الجار والمجرور في قوله: "هل لك" خبر لمبتدأ محذوف، أي: هل لك رغبة في التزكية. (إلى أن تزكى) وفي قراءة بتشديد الزاي بإدغام التاء الثانية في الأصل فيها: أي: تتطهر من الشرك بأن تشهد أن لا إله إلا الله (وأهديك إلى ربك) أدلك على معرفته ببرهان (فتخشى) فتخافه. أي: قل له: هل لك يا فرعون رغبة في أن أدلك على التوحيد الذي يطهّرك من الشرك، ويكسبك الخشية لله تعالى.

وفي هؤلاء الآيات الدعوة إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة. كما قال تعالى: "فقولا له قولًا ليّنا لعله يتذكر أو يخشى". أي: من أجل أن يتذكّر أو يخشى.

(فأراه الآية الكبرى) أي: أكبر آياته السبع، وهما اليد أو العصا (فكذّب) فرعون بالآيات التي جاء بها موسى (وعصى) الله تعالى (ثم) لم يكتف بذلك الكفر، بل (أدبر) عن الإيمان (يسعى) في إبطال أمر موسى.

(فحشر) جمع السحرة وسائر جنوده والحشر: جمع الناس، (فنادى) فيهم، والفاء في قوله: "فنادى" للإشعار بأنه بمجرد أن جمعهم، دعاهم إلى الاعتراف بربوبيته. والنداء: هو الجهر بالصوت لإسماع الغير، ومفعولا الحشر والنداء محذوفان والتقدير فحشر الناس وناداهم. (فقال أنا ربكم الأعلى) أي: لا ربّ فوقي. فهو لم يجعل نفسه ندًّا لله، بل نفى ربوبية الله تعالى مطلقًا ليرد على ما قاله موسى له، وهذا أقبح أنواع الكفر. (فأخذه الله) أهلكه الله بالغرق، ولفظ الأخذ يشعر بأن هذه العقوبة كانت محيطة بالمأخوذ بحيث لا يستطيع التفلت منها. (نكال) عقوبة (الآخرة) أي: هذه الكلمة (والأولى) أي: الكلمة السابقة، وهي قوله قبلها: "ما علمت لكم من إله غيري".

وقيل إن المراد بالآخرة والأولى: الدار الآخرة، والحياة الدنيا. وصحّحه ابن كثير وغيره. فيكون المعنى أن الله تعالى أخذه أخذ عزيز مقتدر، بأن أغرقه في الدنيا، وأحرقه في الآخرة. (إن في ذلك) الإشارة تعود إلى المذكور كله، إرسال موسى، ومخاطبته لفرعون، ثم نجاة موسى، وإهلاك فرعون. (لعبرة لمن يخشى) الله تعالى.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

(أأنتم أشدّ خلقًا أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعًا لكم ولأنعامكم *).

خاطب سبحانه المشركين الذين استنكروا البعث بعد الموت، فقالوا: "أإنا لمردودون في الحافرة"، وبيّن لهم أن بعثهم وإعادتهم بعد الموت، ليست بأصعب من خلق السموات والأرض. فقال سبحانه: "(أأنتم) أي: أخلقكم (أشدّ خلقًا). من السماء، و"أشدّ" أفعل تفضيل، والمفضل عليه محذوف والتقدير: "أأنتم أشد خلقًا من خلق السماء"، وقد دلّ عليه قوله: "أم السماء". والمراد بالأشدّ هنا: الأصعب بالنسبة لاعتقاد المخاطبين، وأما بالنسبة لله تعالى فالأمر واحد، فخلق السموات وخلق ورقة الشجر كلاهما عند الله سواء.

والمقصود من الآية الكريمة لفت أنظارهم إلى أمر معلوم عندهم بالمشاهدة، وهو أن خلق السماء أعظم من خلقهم، ومن كان قادرًا على الأعظم، كان قادرًا على بعثهم بعد موتهم من باب أولى. كقوله تعالى: "لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس".

ثم بيّن سبحانه جانبًا من بديع قدرته في خلق السماء فقال: (أأنتم) أي: منكروا البعث (أشدّ خلقًا أم السماء) أشدّ خلقًا (بناها) بيان لكيفية خلقها (رفع سمكها) تفسير لكيفية البناء أي: جعل سمكها في جهة العلو رفيعًا، وقيل سمكها سقفها (فسواها) جعلها مستوية بلا عيب، والمراد أن الله تعالى رفع السماء عن الأرض رفعًا عظيمًا، وجعلها خاليةً من الشقوق والثقوب كما قال سبحانه: "ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت".

(وأغطش ليلها) أي: أظلم ليلها، بسبب مغيب شمسها. والجملة معطوفة على "بناها".

(وأخرج ضحاها) أي: وأضاء نهارها، وأضيف الليل إليها لأنه ظلها، والشمس لأنها سراجها. وقيل: لأنهما يحدثان بسبب غروب شمسها وطلوعها. قال البغوي: "وأضاف الليل والضحى إلى السماء، لأن الظلمة والنور كلاهما ينزل من السماء".

ثم انتقلت الآيات الكريمة من الاستدلال على قدرته تعالى عن طريق خلق السماء، إلى الاستدلال على قدرته عن طريق خلق الأرض فقال: (والأرضَ) الأرض منصوب على الاشتغال. (بعد ذلك) بعد خلق السماء وتسويتها ورفعها وإغطاش ليلها. (دحاها) من الدحو بمعنى البسط. والمراد أنه خلق السماء وسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، ثم بعد كلّ ذلك بسط الأرض وأوسعها لتكون مستقرًّا لكم. وقد فسّر سبحانه الدحوّ فقال: (أخرج) حال بإضمار قد أي: مُخرِجًا (منها ماءها) بتفجير عيونها، وإجراء الأنهار، (ومرعاها) أي: جميع ما يقتات به الناس والدواب، بدليل

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

قوله تعالى بعد ذلك: "متاعًا لكم ولأنعامكم". والمرعى: مصدر ميمي أطلق على المفعول، كالخلق بمعنى المخلوق، أي: أخرج منها ما يرعى.

وقد أخذ بعض العلماء من هذه الآية أن خلق الأرض متأخّرٌ عن خلق السماء، وجمهور العلماء على أن خلق الأرض متقدّم على خلق السماء، بدليل قوله تعالى: "أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين" إلى قوله: "ثم استوى إلى السماء". والجمع بين هذه آية النازعات، وبين آية فُصّلت بما جاء عن ابن عباس من أنه سئل عن الجمع بين هاتين الآيتين فقال: "خلق الله تعالى الأرض أولًا غير مدحوة، ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وجعل فيها الرواسي والأنهار وغيرهما".

فأصل خلق الأرض كان قبل خلق السماء، ودحوها بجبالها وأشجارها، كان بعد خلق السماء. وقدم سبحانه هنا خلق السماء على الأرض، لأنه أدل على القدرة الباهرة.

(والجبال أرساها) أثبتها على وجه الأرض لتسكن (متاعًا) المتاع: اسم لما يتمتّع به الإنسان من منافع الحياة الدنيا لمدة محدودة من الزمان، ومتاعًا مفعول لأجله لمقدر، أي: فعل ذلك متعة أو مصدر أي تمتيعًا، وقد اشتمل على بيان سبب خلق الأرض على هذه الطريقة البديعة. (لكم ولأنعامكم) جمع نعم وهي الإبل والبقر والغنم.

(فإذا جاءت الطامّة الكبرى * يوم يتذكّر الإنسان ما سعى * وبُرّزت الجحيم لمن يرى * فأما من طغى * وآثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هي المأوى * وأما من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هي المأوى *).

(فإذا) ظرف لما يستقبل من الزمان، وجواب الشرط محذوف. (جاءت) أي: وقعت (الطامّة) الطامّة: اسم للمصيبة العظيمة، وكلّ شيء زاد على غيره، فقد طمّ عليه، ويقال: طم الماء الأرض إذا غمرها، وتسميتها بالطامّة نوعٌ من التفخيم لأمرها، لأن أهوالها تغمر الناس وتجعلهم لا يفكرون في شيء سواها.

(الكبرى) النفخة الثانية، ووصفها بالكبرى يدلّ على أنها تغلب ما سواها من مصائب. (يوم) بدل من إذا (يتذكّر الإنسان ما سعى) في الدنيا من خير وشر، أي: فإذا قامت القيامة، وتذكّر الإنسان في هذا الوقت ما كان قد نسيه من أعمال في دنياه، وقع له من الخوف والفزع مالا يدخل تحت وصف.

(وبُرّزت) أُظهرت (الجحيم) النار المحرقة (لمن يرى) لكل راءٍ، وجواب إذا: (فأما من طغى) يأتي التفصيل لأحوال الناس يوم القيامة، فأما من طغى أي: تجاوز الحدود، بكفره، (وآثر الحياة الدنيا)

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

بأن قدم متاعها الفاني، على نعيم الآخرة الباقي. (فإن الجحيم هي المأوى) أي: فإن مأواه الذي لا مكان له غيره هو النار. (وأما من خاف مقام ربّه) بخوفه من قيامه بين يديه يوم القيامة، فيتزوّد بالإيمان والعمل الصالح استعدادًا لهذا اليوم الذي يجازى فيه كل إنسان بما يستحقه. [1] (ونهى النفس) فجاهدها وذلك بمنعها (عن الهوى) والهوى ميل النفوس إلى الشهوات. (فإن الجنة هي المأوى) أي: فإن الجنة في هي المستقرّ.

وحاصل جواب "فأما": فالعاصي في النار، والمطيع في الجنة.

(يسألونك عن الساعة أيّان مرساها * فيم أنت من ذكراها * إلى ربّك منتهاها * إنما أنت منذر من يخشاها * كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشيةً أو ضحاها *).

ثم لقن الله تعالى نبيّه – صلى الله عليه وسلم – الجواب الذي يرد به على المشركين، الذين يكثرون من السؤال عن يوم القيامة، على سبيل الاستهزاء، فقال تعالى: (يسألونك) أي: كفار مكة (عن الساعة) عن يوم القيامة وأطلق على يوم القيامة ساعة لوقوعها بغتة، أو لسرعة ما فيه من الحساب. (أيّان). أيان: اسم يُستفهم به عن تعيين الوقت وتحديده، فهو ظرف زمان متضمّن معنى "متى". (مرساها): مصدر ميمى من أرسى الشيء إذا ثبّته وأقرّه، ولا يكاد يستعمل هذا اللفظ إلا في الشئ الثقيل، كما فى قوله تعالى: "والجبال أرساها".

والسؤال المذكور كان من كفار مكة، لكن يدخل فيه غيرهم، لأن الحكم واحدٌ.

(فيم أنت من ذكراها) أي: في أي شيء أنت من أن تذكر لهم وقتها، وتعلمهم به حتى يسألونك بيانها، كقوله: "يسألونك كأنك حفيٌّ عنها" فالاستفهام للإنكار.

---

[1] اختلف في المقام، فقيل: المراد به قيام الرب على عبده، أي: اطّلاعه على عبده، وإحاطته به، وهذا المقام يوجب له خشوع القلب، وكلما كان أشدّ استحضارًا لمقام ربّه، كان أشدّ خشوعًا، وهذا المعنى من باب إضافة المقام إلى الرب.

وقيل: خوفه من مقام ربّه هو بخوفه من قيامه بين يديه يوم القيامة، فيتزوّد بالإيمان والعمل الصالح استعدادًا لهذا اليوم الذي يجازى فيه كل إنسان بما يستحقه، وهذا المعنى من باب إضافة المقام إلى العبد.

وانظر: "مدارج السالكين" (١/٥٢٢ – ٥٢٣).

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

و"فيم" خبر مقدّم، وأنت مبتدأ مؤخّر. وقوله "من ذكراها" على تقدير مضاف، أي: ذكرى وقتها، وهو متعلق بما تعلق به الخبر. والمقصود بهذا الجواب توبيخهم على سؤالهم عنها، لأن الأولى بهم هو الاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح. [1]

(إلى ربك منتهاها) أي: إلى ربك وحده منتهى علم قيامها، لا يعلمها أحدٌ غيره. (إنما أنت منذر) أي: إنما ينتفع بإنذارك (من يخشاها) يخافها، وخصّ سبحانه الإنذار بمن يخشى قيام الساعة، لأنهم الذين ينتفعون بهذا الإنذار.

وفي الآية تحديد لمهمة النبيّ – صلى الله عليه وسلم – أي: ليست مهمتك أيّها الرسول الكريم معرفة الوقت الذي تقوم فيه الساعة، فهذا أمر مرد معرفته إلى الله وحده، وإنما مهمتك دعوة الناس إلى حسن الاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح.

ثم ختم سبحانه السورة الكريمة، ببيان حالهم عند قيام الساعة، فقال تعالى: (كأنهم يوم يرونها) أي: يرون يوم القيامة. (لم يلبثوا) في دار الدنيا ودار البرزخ (إلا عشية) العشيّ هو ما بعد الزوال إلى الغروب. (أو ضحاها). الضحى هو الوقت الكائن من أوائل النهار إلى الزوال، والعشيّ من وقت الزوال إلى وقت الغروب، فالضحى غير وقت العشيّ، فكيف يضاف الضحى إلى العشيّ ؟!

قال الفراء في "معاني القرآن": "ليس للعشية ضحى، إنما الضحى لصدر النهار، ولكن هذا ظاهر من كلام العرب أن يقولوا: آتيك العشية أو غداتها، إنما معناه: آخر يوم أو أوله، نظيره: قوله "كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار".

والمقصود من الآية الكريمة: بيان أن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأن هؤلاء المشركين – حين تفاجئهم الساعة بأهوالها – كأنهم لم يلبثوا في دار الدنيا ودار البرزخ إلا وقتا يسيرًا، يشبه العشية أو الضحى بالنسبة للزمان الطويل.

---

[1] و"ما" في قوله "فيم" اسم استفهام بمعنى: أي شيء، وقيل: "فيم" إنكار لسؤالهم، وما بعده استئناف تعليل للإنكار، وبيان لبطلان السؤال. أي فيم هذا السؤال، ثم ابتدئ فقيل: أنت خاتم النبيين، علامة من علاماتها.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة عبس (٨٠)

(مكية وآياتها ثنتان وأربعون)

سبب نزول هؤلاء الآيات أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان جالسًا مع جماعة من كبار مشركي قريش يدعوهم إلى الإسلام في مكة قبل الهجرة، ويشرح لهم تعاليمه، رجاء أن يسلموا ويسلم من وراءهم، فأقبل الأعمى عبد الله بن أم مكتوم، فقال: "علّمني مما علّمك الله، يا رسول الله"، وكرّر ذلك، وهو لا يعلم أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – مشغول بدعوة هؤلاء الزعماء إلى الإسلام، فلما أكثر عبد الله من طلبه، عبس النبيّ – صلى الله عليه وسلم – في وجهه، فنزلت هؤلاء الآيات التي عاتب الله فيها نبيه – صلى الله عليه وسلم –. فكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد ذلك يكرمه، إذا رآه، ويقول له: "مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي". [١]

قال ابن القيم: "وقد عاتب الله تعالى نبيّه في خمسة مواضع من كتابه: في الأنفال، وبراءة، والأحزاب، وسورة التحريم، وسورة عبس" ا.هـ

وفي هذه الأشياء دليل على أن القرآن هو كلام الله تعالى، وليس من كلام محمد – صلى الله عليه وسلم – إذا لو كان من عنده لما عاتبه، ففيه ردّ على من زعم أنه من كلام محمد – صلى الله عليه وسلم –.

ومن مقاصد هذه السورة الكريمة بيان علوّ مكانة المؤمن الذي يقبل على الله تعالى، وخسّة الكافر المعرض عن الخير.

---

[١] وابن أمّ مكتوم، هو عمرو بن قيس، وأمّ مكتوم كنية أمه، وهو من المهاجرين الأولين، وقد كان النبيّ – صلى الله عليه وسلم – يحبه ويكرمه، وكان مؤذن النبيّ هو وبلال بن رباح. وهو ابن خال خديجة.

وقد استخلفه على المدينة في خروجه إلى الغزوات ثلاث عشرة مرة، وقد قتل بالقادسية، أيام عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

بسم الله الرحمن الرحيم

(عبس وتولّى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزّكّى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدّى * وما عليك ألا يزكى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى * كلّا إنها تذكرة * فمن شاء ذكره * في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام برررة *).

(عبس) أي: تغيّر وجهه غضبًا و(تولّى) أي: انصرف عنه (أن جاءه الأعمى) أي: لأجل أن جاءه الأعمى الذي جاء ليتعلّم، وفي الآية الاهتمام بمن أراد أن يتعلّم.

والضمائر في الآية ضمائر غيبة، لكراهة أن يواجه الله تعالى بها نبيه – صلى الله عليه وسلم – بما يكره، تكريمًا له، ورحمةً به.

وفي الآية إثبات أن القرآن ليس من كلام محمّد كما يقول الملاحدة، ولكنه كلام الله تعالى، فلو كان من كلامه لم يُذكر فيه مثل هذا.

(وما يدريك لعله يزّكى) أي: وما يعلمك، فلعل هذا الأعمى يتطهّر من ذنوبه بموعظتك. (أو يذّكر) أي: فإن لم تحصل منه تزكية، حصل منه الاتعاظ بالموعظة، (أو يذّكّر فتنفعه الذكرى) أي: فتنفعه الموعظة ولو بعد حين، وقراءة النصب في "تنفعه" جواب الترجّي.

(أما من استغنى). أي: أما من اكتفى بماله وجاهه عن الإيمان بك (فأنت له تصدّى). فأنت تتعرض له. (وما عليك أن لا يزكّى) أي: وما عليك أن لا يؤمن، إنما عليك البلاغ، ونحن علينا الحساب.

(وأما من جاءك يسعى) أي: من جاءك مسرعًا في طلب الخير، والهداية والعلم. (وهو يخشى) يخاف الله، وهذه تزكية للأعمى. (فأنت عنه تلهّى) أي: فأنت عنه تتشاغل.

(كلّا) لا تفعل مثل ذلك. قال ابن كثير في "التفسير": "ومن هاهنا أمر الله عز وجل رسوله – صلى الله عليه وسلم – ألا يخصّ بالإنذار أحدًا، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار. ثم الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة". (إنها) أي السورة أو الآيات (تذكرةٌ) أي: موعظة للخلق (فمن شاء ذكره) أي: فمن شاء ذكر الله، وقيل: فمن شاء ذكر الوحي فاتّعظ به. (في صحفٍ) خبر ثانٍ لأنها وما قبله اعتراض (مكرّمةٍ) عند الله (مرفوعةٍ) أي: بمنزلة عالية فيكون الرفع هنا معنويًّا، وقيل: إنها في السماء، فيكون الرفع هنا حسّيًّا. ولاشك أن الله تعالى جمع للقرآن النوعين، فهو مرفوع حسًّا ومعنى، فحمل الآية على النوعين أحسن.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

(مطهرةٍ) أي: منزّهة من الشياطين، لا يمسّها إلا المطهّرون وهم الملائكة بدليل ما بعده. (بأيدي سفرة) كتبةٌ ينسخونها من اللوح المحفوظ. وقال ابن جرير: الصحيح أن السفرة هم الملائكة، والسفرة يعني بين الله وبين خلقه، ومنه يقال: السفير: وهو الذي يسعى بين الناس. (كرام بررة) مطيعين لله تعالى وهم الملائكة.

(قُتل الإنسان ما أكفره * من أي شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره * ثم أماته فأقبره * ثم إذا شاء أنشره * كلّا لما يقض ما أمره * فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صبًّا * ثم شققنا الأرض شقًّا * فأنبتنا فيها حبًّا * وعنبًا وقضبًا * وزيتونًا ونخلًا * وحدائق غلبًا * وفاكهةً وأبًا * متاعًا لكم ولأنعامكم *).

(قتل الإنسان) لُعن الكافر (ما أكفره) ما استفهامية للتوبيخ، أي: ما حمله على الكفر. وقيل: ما تعجّبية. (من أيّ شيء خلقه) استفهام تقرير ثم بيّنه فقال: (من نطفةٍ) ماء مهين (خلقه) فعلام الكبر ؟، ولماذا يستبعد إعادته بعد الموت ؟. (فقدّره) علقة ثم مضغة إلى آخر خلقه، وقيل قدّر أجله ورزقه وعمله وشقيٌّ أو سعيد. (ثم السبيل) أي: طريق خروجه من بطن أمه (يسّره) سهّل خروجه من بطن أمّه واختاره ابن جرير. وقيل: يسّر له سُبُل الحصول على مصالحه، وقيل: هذا كقوله تعالى: "إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا" أي: بيّنّاه له وأوضحناه له، وسهّلناه عليه، ورجّحه ابن كثير.

(ثم أماته فأقبره) جعله في قبر يستره، ولم يجعله ممن يلقى على الأرض كالحيوانات، فتلتهمه السباع والطيور. والفرق بين قبرت وأقبرت، أن قبرت الميت تعني إذا دفنته، وأقبره الله: أي: جعله ذا قبر، بحيث صار يقبر، وليس ممن يُلقى فتأكله السباع.

(ثم إذا شاء) في الوقت الذي يريده الله تعالى (أنشره) بعثه بعد الموت (كلّا) قيل إنه تكذيب لكلام الكافر، وقيل إنها بمعنى حقًّا (لما يقض) لم يفعل (ما أمره) به ربه، أي: لم يؤدّ حقّ الله عليه في نفسه وماله. قال ابن كثير: "ولم أجد للمتقدمين فيه كلامًا سوى هذا، والذي يقع لي في معنى ذلك – والله أعلم – أن المعنى "ثم إذا شاء أنشره" أي: بعثه، "كلا لما يقض ما أمره" أي: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة، ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب تعالى له أن سيوجد منهم، ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كونًا وقدرًا، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم" ا.هـ

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

(فلينظر الإنسان) نظر اعتبار (إلى طعامه) كيف قدّره الله ودبره له. وقيل: فلينظر إلى مدخله ومخرجه. (أنا صببنا الماء) مطرًا من السحاب (صبًّا). توكيد. (ثم شققنا الأرض) بالنبات (شقًّا) توكيد. (فأنبتنا فيها حبًّا) كالحنطة والشعير. (وعنبًا) خُصّ بالذكر لمحبة النفوس له. (وقضبًا) هو القتّ الرطب، ويقال له البرسيم، وهو علف الدواب مما يزرعه الأدمي، سمّي بذلك لأنه يُقضب – أي: يقطع – كلّ يوم (وزيتونًا) وهو ما يُعصر منه الزيت. (ونخلًا). ما يثمر التمر. (وحدائق) بساتين (غُلبًا) كثيرة الأشجار. وقيل غليظة الأشجار، وقيل طوال الأشجار. (وفاكهة) يريد ألوان الفواكه. (وأبًّا) ما ترعاه البهائم مما لم يزرعه الآدمي. (متاعًا) متعة أو تمتيعًا. (لكم ولأنعامكم). إلى يوم القيامة.

والمقصود بقوله تعالى: "فلينظر الإنسان" هو نظر الإنسان لهذه الأشياء نظر اعتبار من جهتين:

أحدهما: – نظر لمعرفة نعمة الله على العباد.

والثاني: – نظر استدلال بالمذكور على قدر الله تعالى على إحياء الخلق بعد مماتهم.

(فإذا جاءت الصاخّة * يوم يفر المرء من أخيه * وأمّه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكلّ امرئ منهم يومئذٍ شأن يغنيه * وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة *).

(فإذا جاءت الصاخّة) قيل: هي القيامة، وقيل هي النفخة الثانية وهو الصحيح، وسُمّيت بذلك لأنها تصخّ الأسماع، أي: تكاد تصمّ الآذان. (يوم) يوم بدل من إذا وجوابها دل عليه. (يفرّ المرء من أخيه). وفيه بقاء الأنساب حتى في يوم القيامة، أما قوله تعالى: "فلا أنساب بينهم" فالمراد لا أنساب تنفعهم في دفع العذاب، ولا زيادة الثواب. (وأمّه وأبيه). (وصاحبته) زوجته (وبنيه) وبناته. وابتدأت الآيات بالأدنى ثم الأعلى، فلو ابتدأت بالأعلى ثم الأدنى لم يكن من ذكر الأدنى فائدة كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية.

(لكلّ امرئ منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه) حال يشغله عن شأن غيره، أي: كل واحد مشتغلٌ بنفسه. ثم ذكر تعالى انقسام الناس إلى فريقين سعداء وأشقياء.

بدأ بالسعداء فقال: (وجوه يومئذ مسفرةٌ) مضيئة (ضاحكةٌ) مسرورة (مستبشرةٌ) فرحةٌ، وهؤلاء هم المؤمنون (ووجوه يومئذ عليها غبرةٌ) ظلمةٌ وسوادٌ (ترهقها) تغشاها (قترةٌ) ذلّة، كما قال تعالى: "والذين كسبوا السيئات جزاءُ سيئةٍ بمثلها، وترهقهم ذلّة، ما لهم من الله من عاصم، كأنما أغشيت وجوههم قطعًا من الليل مظلمًا". (أولئك) أهل هذه الحالة (هم الكفرة الفجرة)، أي: الجامعون بين الكفر والفجور، والغالب أن من كان كافرًا كان فاجرًا.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

وبدأ بذكر الوجوه لبيان أن ما في باطنهم قد فاض على ظاهرهم لشدته وعظمته.

سورة التكوير (٨١)

(مكية وآياتها تسع وعشرون)

بسم الله الرحمن الرحيم

(إذا الشمس كُوّرت * وإذا النجوم انكدرت * وإذا الجبال سيرت * وإذا العشار عطلت * وإذا الوحوش حشرت * وإذا البحار سجرت * وإذا النفوس زوجت * وإذا الموءودة سئلت * بأي ذنب قتلت * وإذا الصحف نشرت * وإذا السماء كشطت * وإذا الجحيم سعرت * وإذا الجنة أزلفت * علمت نفس ما أحضرت *).

من مقاصد السورة بيان انفراط الكون يوم القيامة والخروج عن قوانينه.

(إذا الشمس كورت) لُفّت وذهب بنورها، فالتكوير جمع الشيء بعضه إلى بعض، ومنه تكوير العمامة وهو لفّها على الرأس، فمعنى قوله: "كوّرت" جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرمى بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها". وهذا ترجيح ابن جرير، وابن كثير.

(وإذا النجوم انكدرت) تناثرت وتساقطت، وقيل: ذهب ضوؤها (وإذا الجبال سُيّرت) ذهب بها عن وجه الأرض فصارت هباء منبثًّا (وإذا العشار) النوق الحوامل وهو أنفس الأموال عند العرب، وقد قيل إن العشار غير الإبل، والصحيح أنها الإبل وقد رجّحه ابن كثير والقرطبيّ في كتابه "التذكرة"، وعزاه إلى أكثر الناس، وقال ابن كثير: "بل لا يعرف عن السلف والأئمة سواه".

(عُطّلت) تركت بلا راعٍ، أو بلا حلْبٍ، لما دهاهم من الأمر العظيم. وذكر ابن كثير أنهم اختلفوا في وقت وقوعها، فقيل: مع وقوع مقدمات يوم القيامة، وقيل بل يوم القيامة نفسه.

(وإذا الوحوش حشرت) جمعت بعد البعث، كما قال تعالى: "وما من دابة في الأرض، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا في الكتاب من شيء، ثم إلى ربهم يحشرون". فالله تعالى يبعث ابني آدم يوم القيامة، ويبعث معهم الحيوانات، فالحيوانات تبعث للقصاص ثم تصير ترابًا، وأما الناس فيبعثون للقصاص، وللجزاء بالأعمال.

وقد دلّ الكتاب، والسنة، والإجماع على أن البهائم ستحشر، ومن أنكر حشر البهائم فقد أخطأ خطأً قبيحًا كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وقال: "بل هو ضالٌّ أو كافر". [١]

---

[١] "مجموع الفتاوى" (٤/٢٤٨).

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

(وإذا البحار سُجّرت) بالتخفيف والتشديد: أوقدت فصارت نارًا. (وإذا النّفوس زُوّجت) قيل قُرنت بأمثالها، يقرن الفاجر بالفاجر، والتقيّ بالتقيّ. واختاره ابن جرير، وصحّحه ابن كثير، وفي الحديث: "يُحشر المرء مع من أحبّ". وقيل: قرنت نفوس المؤمنين بالحور، ونفوس الكفار بالشياطين.

والقول الأول هو الصواب لأنه أعمّ، والقول الثاني يرجع إلى القول الأوّل لأنه بعض أفراده.

وقيل: قرنت الأرواح بأجسادها. (وإذا الموؤدة) أي: الصغيرة تدفن وهي حية خوف العار والفقر (سئلت) تبكيتًا لقاتلها (بأي ذنب قتلت) وإذا سئلت الموؤدة فما بالك بالوائد ؟! وقرئ بكسر التاء "قُتِلْتِ" حكاية لما تخاطب به، وتجيب قائلةً: "قتلتُ بلا ذنب".

(وإذا الصّحُف نشرت). تنشر صحائف الأعمال يوم القيامة، ليقرأ كلّ واحد عمله، إما بيمينه وإما بشماله. (وإذا السماء كُشطت) نزعت عن أماكنها كما يترع الجلد عن الشاة. (وإذا الجحيم) النار (سُعّرت) بالتخفيف والتشديد أي: أجّجت. (وإذا الجنة أُزلفت) قُرّبت للمتقين.

فهذه اثنا عشر أمرًا، ستٌّ منها في الدنيا من أوّل السورة إلى قوله: "وإذا البحار سُجّرت"، وستٌّ منها في الآخرة وهي من "وإذا النّفوس زُوّجت" إلى هنا. فإذا حصلت هذه الأشياء المذكورة كلّها (علمت نفسٌ) كلّ نفس (ما أحضرت) من عمل من خير وشرّ.

(فلا أقسم بالخُنّس * الجوار الكنس * والليل إذا عسعس * والصبح إذا تنفس * إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين * وما صاحبكم بمجنون * ولقد رآه بالأفق المبين * وما هو على الغيب بضنين * وما هو بقول شيطانٍ رجيم * فأين تذهبون * إن هو إلا ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاءون إلا أن يشاء الله ربّ العالمين *).

(فلا أقسم) لا زائدة (بالخُنّس) قيل هي الكواكب، وقيل بقر الوحش وقيل الظباء، وتوقّف ابن جرير في المراد منها، وذكر ابن كثير أنها تحتمل هذه الأقوال.

والصحيح أنها الكواكب، وهو العلامة اختيار ابن القيّم [1]، وضعّف القول بأنها بقر الوحش، أو الظباء.

وتخنس – بضم النون – أي تختفي في النهار مع وجود الشمس (الجوار) تجري في أفلاكها. (الكُنّس) تكنس بكسر النون: تدخل في كناسها أي: المواضع التي تغيب فيها. فيكون معنى الكنس والخنس متقارب.

---

[1] "التبيان في تفسير القرآن" (ص ١١٩ – ١٢٢).

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

(والليل إذا عسعس) أي: أقبل، وهو اختيار ابن كثير، وقيل بمعنى أدبر، وهو اختيار ابن جرير، وابن القيّم. (والصبح إذا تنفّس) أقبل (إنه) أي: القرآن (لقول) أي: تبليغ، بقرينة لفظ الرسول فيما بعده. (رسولٍ) ملكيّ (كريمٍ) على الله تعالى وهو جبريل، وليس بشيطان كما يقول الكفار.
أضيف القول إلى جبريل لسماعه القرآن من الله، ثم نزوله بالقرآن على النبيّ – صلى الله عليه وسلم –.

(ذي قوة) أي: شديد القوى، ليمنع الشياطين من الاقتراب منه. (عند ذي العرش) أي: الله تعالى (مكين) ذي مكانة، و"عند" متعلّق بمكين. (مُطاع) تطيعه الملائكة، وفيها إشارة إلى جنوده. (ثَمّ) هناك في السماوات (أمين) على الوحي. فلا يخطئ ولا يخون. (وما صاحبكم) محمد – صلى الله عليه وسلم –، (بمجنون) كما زعمتم، وقوله: "صاحبكم" صاحب المرء هو المخالط له، وإنما ذكره بوصف الصحبة لأنهم يعرفونه، فالعجب كيف يصفونه بالجنون وهم يعرفونه.

(ولقد رآه) رأى محمدٌ – صلى الله عليه وسلم – جبريل على صورته التي خلق عليها، والتي حصلت في بطحاء مكة، (بالأفق المبين) البيّن وهو الأعلى بناحية المشرق، وهذا يتضمّن أنه ملكٌ موجودٌ في الخارج يرى بالعيان، ويدركه البصر. [1]

وإنما ذكر رؤية واحدة لأن نزول هذه السورة كانت قبل الإسراء والمعراج، وقد رآه مرّة أخرى وقت المعراج كما قال تعالى: "ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى" وسورة النجم نزلت بعد سورة الإسراء.

(وما هو) أي: محمد – صلى الله عليه وسلم – (على الغيب) الغيب: هو ما غاب عن العين، والمراد به الوحي. (بضنين) بالضاد أي: ببخيل، فلا يكتم منه شيئًا، ولا ينتقّصه، وفي قراءة بالظاء أي: بمتّهم، والقراءتان متواترتان ومعناهما صحيح، وعلى القراءتين يكون المعنى: وما هو بكاتم لشيء من الغيب لا بخلًا ولا بتُهمة، بل هو أمين بلغ كلّ ما يسمعه. (وما هو) أي: القرآن (بقول

---

[1] قال العلامة ابن القيّم في "التبيان في أقسام القرآن" (ص ١٢٦ – ١٢٧): "وهذا يتضمّن أنه ملكٌ موجودٌ في الخارج يرى بالعيان، ويدركه البصر، لا كما يقول المتفلسفة ومن قلدهم: إنه العقل الفعّال، وأنه ليس مما يدرك بالبصر، وحقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان، لا في الأعيان، وهذا مما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم، وخرجوا به عن جميع الملل، ولهذا كان تقرير رؤية النبي – صلى الله عليه وسلم – لجبريل أهمّ من تقرير رؤيته لربّه تعالى، فإن رؤيته لجبريل هي أصل الإيمان الذي لا يتم إلا باعتقادها، ومن أنكرها كفر قطعًا، وأما رؤيته لربّه تعالى فغايتها، أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق".

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

شيطانٍ) مسترقِ السمع (رجيمٍ) مرجوم. وفي الآية تزكية سند القرآن أعظم تزكية كما قال ابن العلامة القيّم في "التبيان". [1]

(فأين تذهبون) فأي طريق تسلكون أوضح من هذه الطريق التي بيّنّاها لكم، وقيل: فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه جاء من عند الله.

(إن) ما (هو إلا ذكر) عظة (للعالمين) الإنس والجن، فهو ذكر لعامة الناس، وأما الآيات التي فيها أنه ذكر خاص لبعض الناس كقوله تعالى: "تذكرة للمتقين" فهو باعتبار المنتفعين به.

(لمن شاء منكم) بدل من العالمين بإعادة الجار. (أن يستقيم) باتباع الحقّ، وفي الآية ردٌّ على الجبرية القائلين بأن العبد لا مشيئة له، أو أن له مشيئة لكنها علامة على حصول الفعل، لا ارتباط بينها وبين الفعل إلا مجرّد اقتران دون أن تكون سببًا فيه.

(وما تشاؤون) الاستقامة على الحقّ، ولا تقدرون عليها (إلا أن يشاء الله رب العالمين) أن تستقيموا عليها. وفي الآية ردٌّ على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلّة.

[1] "التبيان في أقسام القرآن" (ص ١٢٩).

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة الانفطار (٨٢)

(مكية وآياتها تسع عشرة).

بسم الله الرحمن الرحيم

(إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت * وإذا البحار فُجّرت * وإذا القبور بُعثرت * علمت نفس ما قدّمت وأخرت * يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم * الذي خلقك فسواك فعدلك * في أي صورة ما شاء ركبك * كلّا بل تكذبون بالدين * وإن عليكم لحافظين * كرامًا كاتبين * يعلمون ما تفعلون * إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم * يصلونها يوم الدين * وما هم عنها بغائبين * وما أدراك ما يوم الدين * ثم ما أدراك ما يوم الدين * يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا، والأمر يومئذ لله *).

من مقاصد السورة بيان ما يحصل يوم القيامة من تبعثر المخلوقات المنتظمة، وتغيّر حالها ومسارها.

(إذا السماء انفطرت) انشقّت لنزول الملائكة. (وإذا البحار فجّرت) فتح بعضها في بعض فاختلط العذب بالملح، فصارت بحرًا واحدًا، (وإذا القبور بُعثرت) قُلّب ترابها وبعث موتاها، وجواب إذا وما عطف عليها: (علمت نفسٌ) أي: كلّ نفس وقت هذه المذكورات وهو يوم القيامة.

(ما قدّمت) من الأعمال (و) ما (أخّرت) منها فلم تعمله. (يا أيها الإنسان) الكافر (ما غرك بربّك الكريم) أي: ما غرّك بربّك العظيم حتى كفرت به. والكلام للتهديد كما قال ابن كثير.

وقال ابن كثير: "إنما أتى باسمه الكريم؛ لينبّه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة، وأعمال السوء". (الذي خلقك) بعد أن لم تكن شيئًا (فسوّاك) جعلك مستوي الخلقة، أعطاك الأعضاء، وجعلها متساوية. (فعدلك) بالتخفيف والتشديد: جعلك معتدل الخلق، متناسب الأعضاء، ليست يدٌ أو رجلٌ أطولَ من الأخرى (في أيّ صورة ما) صلة (شاء ركبك). أي: أن الله قادر على خلق النطفة على شكل قبيح، ولكن بقدرته ولطفه بالإنسان خلقه على شكل معتدل تامّ حسن المنظر والهيئة. (كلّا) ردع (بل تكذّبون) أي: يا كفّار مكة (بالدين) بالجزاء على الأعمال. (وإن عليكم لحافظين) من الملائكة لأعمالكم (كرامًا) على الله (كاتبين) لها. (يعلمون) جميع (ما تفعلون). والمراد أن يستحيي الإنسان من رؤيتهم إياه، واطّلاعهم عليه، لأن الملائكة تتأذّى مما يتأذى منه ابن آدم.

(إن الأبرار) جمع بارّ، وهو المؤمن المكثر من الأعمال الصالحة، البعيد من المعاصي. (لفي نعيم) الجنّة (وإن الفجار) الكفار (لفي جحيم) النار المحرقة. (يصلونها) يدخلونها ويقاسون حرّها. (يوم

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

الدين) يوم الحساب. (وما هم عنها بغائبين) بمخرجين، ولا لساعة واحدة، وفي الآية دليلٌ على أن النار لا تفنى ولا تبيد.

(وما أدراك) أعلمك (ما يوم الدين) لتفخيمه. (ثم ما أدراك ما يوم الدين) كرّره تعظيمًا لشأنه.

(يوم) فيه قراءتان، بالرفع أي: هو يوم، وبالنصب على الظرفية. (لا تملك نفس لنفس شيئًا) من المنفعة (والأمر يومئذ لله) كقوله: "الملك اليوم لله الواحد القهّار". وقوله: "الملك يومئذ الحقّ للرحمن"، أي: لا أمر لغيره فيه، أي: لا يقدر أحدٌ من التوسط لأحد فيه إلا بإذن الله. قال قتادة: "والأمر – والله – اليوم لله، ولكنه يومئذ لا ينازعه أحدٌ".

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة المطفّفين (٨٣)

(مختلف في كونها مكية أو مدنية، والصحيح أنها مكية، وآياتها ستة وثلاثون)

بسم الله الرحمن الرحيم

(ويل للمطفّفين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لربّ العالمين * كلا إن كتاب الفجار لفي سجّين * وما أدراك ما سجين * كتابٌ مرقوم * ويل يومئذ للمكذبين * الذين يكذبون بيوم الدين * وما يكذب به إلا كل معتد أثيم * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين * كلّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون *).

من مقاصد السورة بيان حال المؤمنين، وحال الكافرين يوم القيامة، تأنيسًا للمؤمنين وتهديدًا للكافرين.

(ويل) توعّد بالعذاب، أو واد في جهنم (للمطفّفين) من التطفيف وهو الإخلال بالكيل والوزن عند البيع. (الذين إذا اكتالوا على) أي: من (الناس يستوفون) الكيل لأنفسهم (وإذا كالوهم). أي: كالوا لهم (أو وزنوهم) أي: وزنوا لهم (يخسرون) أي: ينقصون الكيل أو الوزن. [١]

(ألا) استفهام توبيخ (يظنّ) يتيقّن (أولئك أنهم مبعوثون) فيه (ليوم عظيم) أي: وهو يوم القيامة، وهو يوم عظيم لما فيه من أهوال يوم القيامة، والوقوف بين يدي الله تعالى، فإذا بُعثوا سئلوا عن تطفيفهم.

(يوم) بدل من محل "ليوم"، وعامل النصب فيه مبعوثون (يقوم الناس) من قبورهم فيقفون طويلًا (لربّ العالمين). والمراد أنهم سيقفون لأمره، ولحسابه، ولجزائه. وهذا التذكير يدلّ على أن ذنب التطفيف عظيم، وأن سرقة الأموال واختلاسها أعظم من باب أولى.

(كلّا) حقًّا (إن كتاب الفجار) أي: كتاب أعمال الكفار (لفي سجين) قيل هو كتاب جامع لأسماء الفجّار وأعمالهم، وهو في أسفل الأرض السابعة. (وما أدراك ما سجّين) ما كتاب سجين (كتاب مرقوم) لا يزول ما فيه، ولا ينقص، ولا يزيد.

والقول الثاني: – أن سجين فِعّيل من السجن، وهو الضيق، وقوله: "وما أدراك ما سجّين" أي: هو أمر عظيم، وسجن مقيم، وعذاب أليم. وأصحاب هذا القول يرون أن قوله: "كتاب مرقوم"

---

[١] وقد قيل إن هذا كان حال أهل المدينة عند هجرة النبيّ – صلى الله عليه وسلم – وقد ورد عن ابن عباس ما يؤيّد ذلك، ولكن السورة مكية.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

ليس تفسيرًا لقوله: "وما أدراك ما سجين" وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين، أي: مرقوم مكتوب مفروغ منه، لا يزيد فيه أحد، ولا ينقص منه أحد، وهذا القول صحّحه ابن كثير.

(ويل) سيكون عذابٌ شديدٌ (يومئذ للمكذّبين) وهم (الذين يكذّبون بيوم الدين) بيوم الجزاء (وما يكذّب به إلا كل معتدٍ) متجاوز (أثيم) كثير الإثم أو عظيم الإثم، لأن أثيم صيغة مبالغة (إذا تتلى عليه آياتنا) أي: سمع القرآن من النبيّ أو من غيره. فيكون كفرًا بالآيات وبمن جاء بها لأنه يظن أنه يختلق لها جاء بها من عنده. (قال أساطير الأولين) الحكايات التي سُطرت قديمًا، جمع أسطورة بالضم أو إسطارة بالكسر (كلّا) ردع وزجر لقولهم ذلك. (بل ران) غلب (على قلوبهم) فغشيها (ما كانوا يكسبون) من المعاصي، فما أصابهم فهو كالصدأ. والران هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحقّ والانقياد له.

وفي الآية أن الذنوب تمنع من معرفة الحقّ، ومن قبوله.

(كلّا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالو الجحيم * ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون * كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين * وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون * إن الأبرار لفي نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم * يسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون * ومزاجه من تسنيم * عينًا يشرب بها المقربون *).

(كلّا) حقًّا (إنهم عن ربهم يومئذ) يوم القيامة (لمحجوبون) فلا يرونه مطلقًا، فهم محجوبون عن رؤيته يوم القيامة، كما كانوا محجوبين عن معرفته والإيمان به في الدنيا، والجزاء من جنس العمل.

واستدلّ بهذه الآية الإمام الشافعي وغيره على أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة، وفي الجنة، لأن الكفار إذا كانوا محجوبين عن رؤية الله لأن الله غضب عليهم، فالمؤمنون يرون الله لأنه راضٍ عنهم.

وهو استدلال بمفهوم الآية كما قال ابن كثير، وليس بمنطوقها.

وقيل: إن الكفار يرون الله تعالى لكن رؤية عذاب، وليست رؤية نعيم، كما يتعذّب اللص برؤية السلطان إذا رفع أمره إليه.

(ثم إنهم لصالوا الجحيم) لداخلو النار المحرقة.

قال ابن القيّم في "إغاثة اللهفان": "فجمع عليهم نوعي العذاب: عذاب النار، وعذاب الحجاب عنه سبحانه، كما جمع لأوليائه نوعي النعيم: نعيم التمتّع بما في الجنة، ونعيم التمتّع برؤيته".

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

(كلّا) حقًّا (إن كتاب الأبرار) أي: كتاب أعمال المؤمنين الصادقين في إيمانهم (لفي عليين) أعالي الجنة تحت العرش. (وما أدراك) أعلمك (ما عليون) ما كتاب عليين، هو (كتاب مرقوم) لا يزول ما فيه، ولا ينقص، ولا يزيد. (يشهده المقرّبون) يحضر هذا الكتاب مقربو كلّ سماء من الملائكة إذا صعدوا به إلى عليين.

وذكر ابن القيّم أن الله تعالى خصّ كتاب الأبرار بأنه يُكتب ويوقّع لهم به بمشهد المقرّبين من الملائكة، والنبيّين، وسادات المؤمنين، دون كتاب الفجار، تنويهًا بكتاب الأبرار، وما وقّع لهم به، وإظهارًا له بين خواص خلقه، كما يكتب الملوك توقيع من تعظّمه بين الأمراء، وخواص أهل المملكة، تنويهًا باسم المكتوب له، وإشادة بذكره، وهذا نوع من صلاة الله سبحانه وتعالى وملائكته على عبده.

(إن الأبرار) جمع بارّ، وهو المؤمن المُكثر من الأعمال الصالحة. (لفي نعيم) جنة (على الأرائك) السرر المزيّنة (ينظرون) حُذف المتعلَّق ليشمل احتمال النظر إلى ربّهم، واحتمال النظر إلى ما أعطوا من النعيم. وقال آخرون: المراد بالنظر هنا هو النظر إلى وجه الله فقط، لأنه ذكر بمقابل حرمان الكفار من النظر إلى وجه الله تعالى، وهو اختيار ابن القيّم.

(تعرف) ترى (في وجوههم نضرة) بهجة (النعيم) أي: الذي سببه نعيم الجنة. (يُسقون) أي: يُعطون كؤوسًا فيها شرابٌ، والساقي هم خدمهم (من رحيقٍ) من خمر خالصة من الخبث، والرحيق من أسماء الخمر كما قاله بعض السلف، ونقله ابن كثير. (مختوم) على إنائها أي: مربوط، فلا يفُكُّ ختمَه غيرُهم. (ختامه مسك) أي: في آخر الشرب تفوح منه رائحة المسك. وقيل: آخر طعمه ريح المسك. (وفي ذلك) الجزاء العظيم (فليتنافس المتنافسون) فليحرص كلّ واحد منهم أن يكون في أعلى الدرجات، وذلك بالمبادرة إلى الإكثار من طاعة الله.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

(ومزاجه) أي: الشراب الذي يمزج به (من تسنيم) عين تكون في أعلى الجنة، ينصّب على شرابهم منها، وقد فُسّر التسنيم بقوله: (عينًا) منصوب بفعل محذوف تقديره أمدح أو أعني. (يشرب بها المقربون) أي: منها، والأحسن أن يقال: إن فعل يشرب ضُمّن معنى يتلذّذ أو يرتوي. [1]

والخلاصة أن التسنيم عينٌ يشربها المقربون صرفًا بلا مزْج، وتمزج لأصحاب اليمين مزجًا، كلٌّ بحسب مراتبهم.

قال ابن القيّم في "طريق الهجرتين":

"والتسنيم أعلى أشربة الجنة، فأخبر سبحانه أن مزاج شراب الأبرار من التسنيم، وأن المقرّبين يشربون منه بلا مزاج، ولهذا قال عينًا يشرب بها المقربون كما قال تعالى في سورة الإنسان سواء، قال ابن عباس وغيره: يشرب بها المقربون صرفًا، ويمزج لأصحاب اليمين مزجًا، وهذا لأن الجزاء وفاق العمل، فكما خلصت أعمال المقربين كلّها لله خلص شرابهم، وكما مزج الأبرار الطاعات بالمباحات مزج لهم شرابهم، فمن أَخلص أُخلص شرابه، ومن مَزج مُزج شرابه".

(إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مرّوا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين * وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون * وما أرسلوا عليهم حافظين * فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون *).

(إن الذين أجرموا) كأبي جهل وأضرابه (كانوا من الذين آمنوا) كعمار وبلال ونحوهما (يضحكون) استهزاءً بهم (وإذا مرّوا) أي: مرّ بهم المؤمنون (بهم يتغامزون) الغمز هنا بمعنى الاستهزاء بإشارة العين، والمراد أن المجرمين يستهزءون من المؤمنين بإشارة العين.

---

[1] هل أحرف الجرّ تتناوب فيما بينها ؟! أو أن الأفعال قد تتضمّن معاني أفعال أخرى ؟ اختلفوا في ذلك، فقيل: إن أحرف الجرّ تتناوب فيما بينها، وهذا قول الكوفيين.

وقيل: أحرف الجرّ لا تتناوب فيما بينها، وإنما هناك تضمين، أي: يتضمّن فعل معنى فعل آخر، حتى إنه يتعدّى بتعديته، كقوله تعالى: "وقد أحسن بي" أي: لطف بي، وقوله: "يشرب بها عباد الله" أي: يرتوي بها، وقوله: "لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه" أي: بضم نعجتك إلى نعاجه، ونحوها.

وهذا قول البصريين، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه العلامة ابن القيّم في "حادي الأرواح".

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

(وإذا انقلبوا) أي: رجع الكفار من مجالسهم (إلى أهلهم انقلبوا فكهين) وفي قراءة فاكهين، أي: معجبين بحالهم، أو بذكرهم المؤمنين (وإذا رأوهم) أي: رأوا المؤمنين (قالوا إن هؤلاء لضالون) لإيمانهم بمحمد – صلى الله عليه وسلم –، وتركهم دين آبائهم. قال تعالى: (وما أرسلوا) أي: الكفار (عليهم) على المؤمنين (حافظين) وكلاء عليهم ليحفظوا أعمالهم. (فاليوم) أي: يوم القيامة (الذين آمنوا من الكفّار يضحكون) على سبيل المقابلة كما ضحك الكفار منهم في الدنيا. (على الأرائك) في الجنة (ينظرون) من منازلهم إلى الكفار وهم يعذّبون. (هل ثوّب) جوزي (الكفار ما كانوا يفعلون). وهو استفهام بمعنى الإثبات، وله وجهان: أحدهما: – متعلّق بما قبله، فيكون المراد فاليوم الذين آمنوا ينظرون جزاءَ الكفار.

والثاني: – غير متعلّق بما قبله، فيكون المراد لقد جوزي الكفار ما كانوا يفعلون.

وفي هؤلاء الآيات بيان عاقبة المؤمنين، وعاقبة المستهزئين، وهو خبر بمعنى الأمر والنهي، أمر المؤمنين بالصبر على الاستهزاء، ونهي الكفار عن ذلك، وتوعّدهم بالعذاب يوم القيامة.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة الانشقاق (٨٤)

(مكية، وآياتها خمس وعشرون)

بسم الله الرحمن الرحيم

(إذا السماء انشقّت * وأذنت لربها وحُقّت * وإذا الأرض مُدّت * وألقت ما فيها وتخلّت * وأذنت لربها وحُقت * يا أيها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربّك كدحًا فملاقيه * فأما من أوتي كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا * وينقلب إلى أهله مسرورًا * وأما من أوتي كتابه وراء ظهره * فسوف يدعو ثبورًا * ويصلى سعيرًا * إنه كان في أهله مسرورًا * إنه ظنّ أن لن يحور * بلى إن ربّه كان به بصيرًا * فلا أقسم بالشفق * والليل وما وسق * والقمر إذا اتّسق * لتركبُن طبقًا عن طبق * فما لهم لا يؤمنون * وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون * بل الذين كفروا يكذّبون * والله أعلم بما يوعون * فبشّرهم بعذاب أليم * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون *).

من مقاصد السورة بيان ما يحصل القيامة، وأقسام الناس فيه، وحثّ الإنسان على العمل الذي يوصله إلى الجنة، ليكون من السعداء.

(إذا السماء انشقّت) تصدّعت يوم القيامة لنزول الملائكة (وأذنت لربّها) استمعت لربّها وانقادت لأمره (وحُقّت) أي: وحقّ لها أن تسمع وتطيع. (وإذا الأرض مُدّت) زيد في سعتها كما يُمدّ الأديم ولم يبق عليها بناءٌ ولا جبلٌ (وألقت ما فيها) من الموتى إلى ظهرها (وتخلّت) عنهم، أي: تركتهم للحساب. (وأذنت) استمعت منقادةً، ((لربّها وحُقّت) أي: وحقّ لها أن تسمع وتطيع.

وذلك كله يكون يوم القيامة، وجواب إذا وما عطف عليها محذوف دلّ عليه ما بعده، تقديره لقي الإنسان عمله.

(يا أيها الإنسان) الخطاب لجنس الإنسان، فيشمل المؤمن والكافر (إنك كادحٌ إلى ربّك كدحًا) فيها قولان أحدهما: – أنك ساعٍ سعيًا فملاقي سعيك، لأن الآية بعدها فصّلت في الأعمال.

والقول الثاني: – أنك تسير إلى الله سيرًا حثيثًا فملاقيه، فالزمان يمرّ عليك سريعًا، فكأنك سائر مسرعًا إلى الموت، وقد استظهر هذا القول ابن جُزيّ، واستندوا إلى أن كادح يحتمل المعنيين، لكنه هنا تعدى بحرف "إلى" لما تضمّن معنى السير، ولو كان بمعنى العمل لقال: إنك كادحٌ لربك. وكلا القولين متلازمٌ كما قال ابن كثير، لأن السير إلى الله يستلزم ملاقاة العمل.

ثم فصّل في أحوال الناس يوم القيامة فقال: (فأما من أوتي كتابه) كتاب عمله (بيمينه) هو المؤمن (فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا) وهذا الحساب هو عرض العمل عليه كما في حديث الصحيحين

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

وفيه: "من نُوقش الحساب هلك". وبعد العرض يتجاوز الله عنه. (وينقلب إلى أهله) زوجاته في الجنة (مسرورًا) بذلك (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره) هو الكافر تُغلّ يده اليمنى إلى عنقه، وتجعل يسراه وراء ظهره فيأخذ بها كتابه.

(فسوف يدعو) عند رؤيته ما في كتابه (ثبورًا) ينادي على نفسه بالهلاك بقوله: "يا ثبوراه". (ويصلى سعيرًا) ويدخل بعد ذلك النار الشديدة الحرارة، وفي قراءة بضم الياء وفتح الصاد واللام المشدّدة، ثم علّل سبب هلاكه فقال: (إنه كان في أهله) عشيرته في الدنيا (مسرورًا) فرحًا لا يخاف من يوم القيامة. (إنه ظنّ أن) مخفّفة من التثقيل واسمها محذوف، أي: أنه (لن يحور) يرجع إلى ربّه بعد الموت (بلى) سيرجع إليه، وسيجازيه على أعماله. (إن ربّه كان به بصيرًا) عالمًا بأعماله كلّها من يوم أن خلقه إلى أن بعثه. ويحتمل أن المراد بلى سيرجع إليه، لأنه عالمٌ بجميع أجزائه التي غابت في الأرض كما قال تعالى: "قد علمنا ما تنقص الأرض منهم".

(فلا أقسم) لا زائدة (بالشفق) هو الحمرة في الأفق بعد غروب الشمس. (والليل وما وسق) أي: والليل وما جمعه الليل، والمراد ما دخل عليه من الدواب وغيرها. (والقمر إذا اتّسق) اجتمع وتمّ نوره وذلك هو البدر في الليالي البيض (لتركبُنّ) أيها الناس (طبقًا عن طبق) حالًا بعد حال، من النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ثم الحياة، ثم خروج الولد إلى الدنيا، ثم الموت، ثم البعث وأهوال القيامة ثم الجنة أو النار.

(فما لهم) أي: الكفار (لا يؤمنون) أي: فما هو المانع لهم من الإيمان بالله تعالى مع وجود براهينه (و) مالهم (إذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون) يخضعون بأن يؤمنوا به لإعجازه (بل الذين كفروا) من سجيّتهم أنهم (يكذبون) بالبعث وغيره. (والله أعلم) محيطٌ (بما يوعون) بما تحويه صدورهم، وقيل: بما يجمعون في صحفهم من الكفر وأعمال السوء (فبشّرهم) أخبرهم (بعذاب أليم) مؤلم (إلا) لكن (الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجرٌ) ثوابٌ (غير ممنونٌ) غير مقطوع ولا منقوص ولا يمنّ به عليهم.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة البروج (٨٥)

(مكية، وآياتها ثنتان وعشرون)

بسم الله الرحمن الرحيم

(والسماء ذات البروج * واليوم الموعود * وشاهد ومشهود * قُتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهودٌ * وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد * الذي له ملك السماوات والأرض، والله على كل شيء شهيد *).

من مقاصد السورة بيان أن سنّة الله جرت في امتحان المؤمنين، وأنه ينتقم لأوليائه من أعدائه، وأنه تعالى ذو قوّة عظيمة، يجعل العاقبة للمتقين.

(والسماء ذات البروج) يقسم تعالى بالسماء المشتملة على منازل الشمس والقمر وغيرهما، وهي اثنا عشر برجًا (واليوم الموعود) يقسم تعالى بيوم القيامة (وشاهد ومشهود) يقسم تعالى بكل شاهد يكون في ذلك اليوم الموعود، كالنبيّ على أمته، والجوارح الشاهدة على العبد، وبكل مشهود عليه كالأمة التي يشهد عليها نبيّها، والعبد الذي تشهد عليه جوارحه.

وقد اختلف في الشاهد والمشهود، والصحيح أن الآية عامّة.

(قُتل) لعن (أصحاب الأخدود) الأخدود: هو الشقّ في الأرض، والمراد به الأخدود المشهور الذي حفر لتعذيب المؤمنين، وأصحابه هم الكفار الذين حفروه، وهم ملك كافر وأتباعه، وذلك تعذيبًا لمن آمن من رعيّته. (النار) بدل اشتمال منه (ذات الوقود) ما توقد به النار. (إذ) ظرف لما مضى من الزمان، متعلّق بلعن، أي: أن اللعنة نزلت عليهم عندما أحرقوا المؤمنين، و(هم عليها) حولها على جانب الأخدود على الكراسي (قعود). (وهم على ما يفعلون بالمؤمنين) من تعذيبهم بالإلقاء في النار إن لم يرجعوا عن إيمانهم (شهودٌ) أي: أنهم شاهدون على أنفسهم بذلك. (وما نقموا منهم) وما عابوا على المؤمنين (إلا أن يؤمنوا بالله) أي: ما أنكر الكفار على المؤمنين إلا إيمانهم.

(العزيز) في ملكه (الحميد) المحمود (الذي له) وحده (ملك السموات والأرض، والله على كل شيء شهيد) أي: مطّلع على ما فعلوه بالمؤمنين، وفي هذا وعيدٌ شديدٌ لأصحاب الأخدود، ووعد عظيم للمؤمنين الذي عُذّبوا في الأخدود.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

(إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم، ولهم عذاب الحريق * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ذلك الفوز الكبير * إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدئ ويعيد * وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد * فعّال لما يريد * هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود * بل الذين كفروا في تكذيب * والله من ورائهم محيط * بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ *).

(إن الذين فتنوا) عذّبوا (المؤمنين والمؤمنات) بإحراقهم في النار (ثم لم يتوبوا) من فعلهم المذكور ولم يرجعوا عن كفرهم (فلهم عذاب جهنم) بكفرهم (ولهم عذاب الحريق) قيل: في الآخرة، وقيل: في الدنيا، وذلك بأن الله أنجى المؤمنين المُلقَيْن في النار بقبض أرواحهم قبل وقوعهم فيها، وخرجت النار إلى من كان هناك فأحرقتهم، لكن لم يصحّ فيه شيءٌ.

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها) أي: تحت مساكنها (الأنهار) المتنوعة من الماء، واللبن، والخمر، والعسل. (ذلك) الجزاء هو (الفوز الكبير). لأنه يفوق كلّ فوز يحصل للإنسان.

(إن بطش) أخذ (ربك) للظالم بسبب ظلمه (لشديد) وإن أمهله حينًا من الزمان. (إنه هو يبدئ) الخلق في الدنيا (ويعيد) الخلق فيبعثهم يوم القيامة، وقد يبعث بعضَ الناس في الدنيا كما بعث عُزيرًا، وكما بعث أصحاب الكهف، وكما بعث صاحب بقرة بني إسرائيل، وغيرهم. (وهو الغفور) صيغة مبالغة من المغفرة، أي: عظيم المغفرة للمذنبين، لكثرة مغفرته للذنوب، ولكثرة من يغفر لهم، ومغفرته هي عفوه عن الذنوب ووقايته لهم من شرّها، وأعظم مغفرته ينالها التائبون، وقد يغفر لغيرهم بأعمال تستوجب ذلك، وقد يغفر لغيرهم بمحض فضله وكرمه. (الودود) عظيم المحبّة لأوليائه، متودّدٌ إليهم بإحسانه إليهم، ولُطفه بهم. (ذو العرش) خالقه ومالكه (المجيد) بالرفع: ذو المجد، والمجد غاية صفات الكمال. (فعّال لما يريد) كثير الفعل لما يريده، فلا يعجزه شيء، ولا يكرهه أحدٌ على ما لا يريد.

(هل أتاك) يا محمد (حديث الجنود) الذين جُنّدوا لمحاربة الحقّ، وحديث الجنود أنهم أهلكهم الله بكفرهم. (فرعون) اكتفى بذكر فرعون عن أتباعه. (وثمود) بدل من الجنود، وهذا تنبيهٌ لمن كفر بالنبي – صلى الله عليه وسلم – ليتّعظوا، لكنهم لم يتّعظوا. (بل الذين كفروا) من قبائل العرب وغيرهم (في تكذيب) بما ذُكر (والله من ورائهم محيطٌ) بأعمالهم فلا يخفى عليه شيء، وقادر عليهم فلا عاصم لهم منه. (بل) لإبطال دعاويهم الباطلة في القرآن (هو قرآن مجيد) عظيم، بلغ الغاية في صفات الكمال من حيث قوة إعجازه، وكثرة بركته، وعظيم خيره، فليس هو بسحر، ولا شعر،

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

ولا كهانة، ولا غير ذلك مما يقوله الكفار، مكتوب (في لوح) عظيم في الهواء فوق السماء السابعة، طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب وهو من درة بيضاء قاله ابن عباس رضي الله عنهما. (محفوظ) من الشياطين، ومحفوظ من التغيير، ومحفوظ من الاطلاع.

فاجتمع في القرآن علوّ المنزلة المعنوية لأنه مجيد، وعلوّ المنزلة الحسيّة لأنه في لوح عظيم فوق السماء السابعة، وعصمته من التغيير، والزيادة، والنقص، لأنه محفوظ.

سورة الطارق (٨٦)

(مكية، وآياتها سبع عشرة آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

(والسماء والطارق * وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب * إن كلّ نفس لما عليها حافظ * فلينظر الإنسان ممّ خُلق * خُلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب * إنه على رجعه لقادر * يوم تبلى السرائر * فما له من قوة ولا ناصر * والسماء ذات الرجع * والأرض ذات الصدع * إنه لقول فصل * وما هو بالهزل * إنهم يكيدون كيدًا * وأكيد كيدًا * فمهّل الكافرين أمهلهم رويدًا *).

من مقاصد السورة بيان رقابة الله على العباد، وأنه وكّل عليهم ملائكةً حافظين يُحصون أعمالهم كلّها، وأنه قادر على خلقهم ابتداءً، وعلى إعادتهم بعد الموت.

(والسماء) أقسم بالسماء (والطارق) هو النجم لأنه مفسّر بالآية، والطارق أصله كل آت ليلًا، ومنه النجوم لطلوعها ليلًا، (وما أدراك) أعلمك (ما الطارق) مبتدأ وخبر، وهما في محل المفعول الثاني لأدرى، وما بعد ما الأولى خبرها، وفيه تعظيم لشأن الطارق المفسّر بما بعده.

(النجم) أي: الثريا، أو كل نجم (الثاقب) الذي يثقب الظلام بضوئه، وجواب القسم (إن كلّ نفس لما عليها حافظ) أي: إن كلّ نفس إلا وقد وُكّل بها حافظ من الملائكة، يحفظ عليها أعمالها من خير وشر.

والآية لها إعرابان:

أحدهما: – إن مخفّفة من الثقيلة، واسمها محذوف أي: إنه، واللام فارقة، و"ما" مخّففة، فتكون مزيدة. فيكون المعنى: إن كل نفس عليها حافظٌ.

والثاني: – إن نافية، و"ما" مشدّدة، فتكون لما بمعنى إلا، فيكون المعنى: إن كلّ نفس إلا عليها حافظ.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

ولما انتهت الآيات من الكلام على أن كل نفس عليها حافظ يحفظ أعمالها، انتقلت الآيات إلى أن البعث بعد الموت حقّ، والرابط بين الأمرين أن في يوم البعث تجزى كل نفس بأعمالها.

(فلينظر) فليتأمل (الإنسان) (ممّ خُلق) من أي شيء خُلق، وحُذف اسم الخالق لأنه معلومٌ، وجوابه (خُلق من ماء دافق) دافق بمعنى مدفوق، أو ذو اندفاق [1]، يخرج من الرجل، ويخرج من المرأة، وجعلهما ماءً واحدًا لأنهما يمتزجان في الرحم. (يخرج) الماء المذكور (من بين الصلب) صلب الرجل هو عموده العظمي الفقري في الظهر. (والترائب) ترائب المرأة وهي عظام صدرها. وقيل: صلب وترائب كلٍّ منهما.

(إنه) تعالى إذ خلقه من ذلك الماء المهين فإنه (على رجعه) بعث الإنسان بعد موته (لقادرٌ) لعظيم قدرته تعالى. وسيرجعه يوم القيامة. (يوم) متعلّق برجعه. (تُبلى) تُكشف (السرائر) وهي ما تضمره القلوب من العقائد والنيّات، فيتميّز الصالح فيها من الفاسد. (فما له) أي: لمنكر البعث (من قوّة) في نفسه يمتنع بها من العذاب، (ولا ناصر) من غيره يدفع عنه العذاب. وكلمتا "قوّة" و"ناصر" نكرتان في سياق النفي فتفيدان العموم.

(والسماء ذات الرجع) المطر لأنه يتزل من جهتها مرّة بعد مرّة. (والأرض ذات الصدع) التشقّق عن النبات، والثمر، والشجر. (إنه) أي: القرآن المنزّل على محمد (لقول فصلٌ) يفصل بين الحقّ والباطل، والصدق والكذب. (وما هو بالهزل) باللعب والباطل.

(إنهم) أي: إن المكذّبين (يكيدون كيدًا) يتآمرون على النبي – صلى الله عليه وسلم – ولدينه.

(وأكيد كيدًا) أي: وأنا أبطل مكائدهم، وأنصر الحقّ، ويحتمل أن المراد: وأنا أستدرجهم من حيث لا يعلمون. (فمهّل) يا محمد (الكافرين أمهلهم) تأكيد معنوي، أي: أنظرهم (رويدًا) قليلًا وهو مصدر مؤكّد لمعنى العامل مصغّر رود أو أرواد. وقد أخذ الله تعالى كثيرًا من قريش ببدر وغيرها من المعارك.

---

[1] قال ابن عطية: "يصحّ أن يكون الماء دافقًا لأن بعضه يدفع بعضًا.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة الأعلى (٨٧)

(مكية، وآياتها تسع عشر آية).

بسم الله الرحمن الرحيم

(سبّح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدّر فهدى * والذي أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى * سنقرئك فلا تنسى * إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى * ونيسرك لليسرى * فذكّر إن نفعت الذكرى * سيذكّر من يخشى * ويتجنّبها الأشقى * الذي يصلى النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيى * قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى * بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى * إن هذا لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى *).

من مقاصد السورة بيان ربوبية الله تعالى، وترك تعلّق القلوب بالدنيا، وتعليق القلوب بالآخرة.

(سبّح اسم ربك) أي: نزّه ربك عن كلّ ما لا يليق به. (الأعلى) صفة لربك، وتعني الذي لا أحد فوقه. (الذي خلق) كلّ مخلوق (فسوّى) أي: جعله متناسب الأجزاء غير متفاوت. وقيل: خلق الإنسان فسوّاه معتدلًا. (والذي قدّر) الخلائق أجناسها، وأنواعها، وصفاتها (فهدى) كلّ مخلوق إلى ما يناسبه ويلائمه. (والذي أخرج) أنبت (المرعى) العشب الذي ترعاه البهائم. (فجعله) بعد الخُضرة (غثاءً) جافًّا هشيمًا (أحوى) أسود يابسًا. وفيه تعريض بزوال الدنيا.

(سنقرئك) القرآن أيها النبيّ ونجعله في صدرك. (فلا تنسى) ما تقرؤه (إلا ما شاء الله) أن تنساه بنسخ تلاوته، أو نسخ حُكمه. ولا في "لا تنسى" لها وجهان: أحدهما: – أنها لا نافية.

والثاني: – أنها لا ناهية، ولم يحذف حرف العلة للتناسب مع الآيات، كما قال الشوكاني في "فتح القدير".

وكان النبيّ – صلى الله عليه وسلم – إذا رأى جبريل في آخر الآية شرع هو في أولها خوفَ النسيان، فيجهر بالقراءة مع قراءة جبريل، فكأنّه قيل له: لا تعجل بها لأنك لن تنسى شيئًا. فالنبيّ – صلى الله عليه وسلم – معصوم من النسيان. (إنه) تعالى (يعلم الجهر) من القول والفعل (وما يخفى) منهما. (ونيسّرك) ونهيئك بما تعمله من أعمال صالحة (لليسرى) للجنة. (فذكّر) عِظ بالقرآن (إن نفعت الذكرى) ما دامت الذكرى مسموعة. فالوعظ الأول واجب للجميع، والوعظ الثاني إنما يكون في حقّ من تقبّل الوعظ الأول. (سيذكّر) بالوعظ (من يخشى) يخاف الله تعالى كآية: "فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد" (ويتجنّبها) أي: الذكرى، أي: يتركها جانبًا لا يلتفت إليها. (الأشقى) بمعنى الشقيّ أي: الكافر. (الذي يصلى النار) يقاسي حرّ النار (الكبرى)

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

هي نار الآخرة، والصغرى نار الدنيا. (ثم) يُعذّب فيها عذابًا شديدًا أبدًا (لا يموت فيها) فيستريح (ولا يحيا) فيها حياة هنيئة.

(قد أفلح) فاز (من تزكّى) تطهّر بالإيمان. (وذكر اسم ربّه) مكبرًا (فصلى) الصلوات الخمس، (بل تؤثرون) قراءتان: بالفوقانية أي: بالتاء، والتحتانية أي: بالياء، أي: تفضّلون (الحياة الدنيا) على الآخرة، رغم ما بينهما من تفاوت عظيم، (والآخرة) المشتملة على الجنة. (خيرٌ) أعظم من الدنيا (وأبقى) أدوم لأن نعيمها لا ينقطع. (إن هذا) الذي ذكرناه لكم من إفلاح من تزكّى، وكون الأخرة خيرًا وأبقى (لفي الصحف الأولى) أي: المنزّلة قبل القرآن (صحف إبراهيم وموسى) وهي عشرة صحف لإبراهيم، والتوراة لموسى، وقيل غيرها.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة الغاشية (٨٨)

(مكية، وآياتها ست وعشرون)

بسم الله الرحمن الرحيم

(هل أتاك حديث الغاشية * وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة * تصلى نارًا حامية * تسقى من عين آنية * ليس لهم طعام إلا من ضريع * لا يسمن ولا يغني من جوع * وجوهٌ يومئذٍ ناعمةٌ * لسعيها راضية * في جنة عالية * لا تسمع فيها لاغية * فيها عين جارية * فيها سررٌ مرفوعة * وأكواب موضوعة * ونمارق مصفوفة * وزرابيّ مبثوثة * أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت * فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمصيطر * إلا من تولى وكفر * فيعذبه الله العذاب الأكبر * إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم *).

من مقاصد السورة بيان ما يكون عليه المؤمن من النعيم المقيم، وما يكون عليه الكافر من العذاب الأليم.

(هل) الاستفهام للتحقيق، والمعنى قد (أتاك حديث الغاشية) القيامة لأنها تغشى الخلائق بأهوالها. فيكون الناس يوم القيامة على قسمين: أشقياء وسعداء.

(وجوهٌ) وجوه الأشقياء (يومئذٍ) يوم القيامة. (خاشعةٌ) ذليلةٌ. (عاملة) مُتعَبة (ناصبة) مُجهدة بالسلاسل التي تُسحب بها، والأغلال التي تُغلّ بها.

والقول الثاني: أن المراد بعاملة ناصبة أنهم كانوا يتعبون أنفسهم في العبادة وينصبونها، ولكن لا أجر لهم فيها لما هم عليه من الكفر.

(تَصلى) هذه الوجوه (نارًا حامية) شديدة الحرارة (تُسقى) ماءً (من عين آنية) شديدة الحرارة (ليس لهم طعام إلا من ضريعٌ) وهو أخبث الطعام وأنتنه، ويُسمى في لغة قريش الشبرق ما دام رطبًا، فإذا يبس صار مسمومًا فيسمّى الضريع. (لا يُسمن) آكلَه (ولا يغني من جوع).

(وجوهٌ) أي: وجوه السعداء (يومئذٍ) يوم القيامة. (ناعمةٌ) فيها بهاء ونضارة. (لسعيها) في الدنيا بالطاعة (راضية) في الآخرة لما رأت الثواب. (في جنة عالية) المكان والمكانة. (لا تسمع) بالتاء والياء (فيها لاغية) أي: لغوًا، وهو الهذيان من الكلام، فضلًا عن كلمة محرّمة. (فيها) أي: الجنة (عين) بمعنى عيون (جارية) بالماء وغيره، يفجّرونها ويصرّفونها كيف شاءوا. (فيها سرر مرفوعة) ذاتًا وقدرًا ومحلًا (وأكواب) أقداح لا عرا لها (موضوعة) على حافات العيون معدة للشرب

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

(ونمارق) وسائد (مصفوفة) بعضها بجنب بعض يستندون إليها. (وزرابيّ) بسط طنافس لها خمل (مبثوثة) مفرقة في المجالس.

ثم خاطب كفار مكة وغيرهم فدعاهم إلى التفكّر الذي يوصلهم إلى الإيمان، فقال: (أفلا ينظرون) نظر اعتبار وتأمل (إلى الإبل كيف خُلقت) لأن خلقها يدعو إلى التعجّب من بديع خلق الله تعالى في نفسها [1]، وفي تسخيرها لابن آدم. [2] (وإلى السماء كيف رفعت) فوق الأرض بلا عمد، حتى صارت سقفًا محفوظًا. (وإلى الجبال) الشاهقة (كيف نُصبت) في الأرض حتى تثبت بها، فلا تضطرب ولا تميل. (وإلى الأرض) ذات السهول، والأودية، والشعاب، والسواحل، والصحاري (كيف سُطحت) أي: بسطت ليستقرّ عليها الناس. أفلا ينظرون إلى ذلك كلّه فيستدلون بها على قدرة الله تعالى ووحدانيته.

وصُدّرت الآيات بالإبل لأنهم يعرفونها أكثر من غيرها.

(فذكّر) أي: عظ هؤلاء المشركين، وبيّن لهم دلائل التوحيد، وما أنعم الله به عليهم. (إنما أنت مذكّر) لا نطلب منك غير التذكير، أما التوفيق فهو بيد الله تعالى. (لست عليهم بمصيطر) فلا تقدر على إكراههم على الإيمان، وفي قراءة بالسين بدل الصاد. (إلا) لكن (من تولّى) أعرض عن الإيمان (وكفر) بالقرآن (فيعذّبه الله) يوم القيامة (العذاب الأكبر) وهو عذاب الآخرة الشديد والدائم، أما العذاب الأدنى فهو عذاب الدنيا، ويكون بعقوبات الدنيا، وكذلك عذاب البرزخ ويكون بعذاب القبر، كما قال تعالى: "ولنذيقنّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر".

(إن إلينا) وحدنا (إيابهم) رجوعهم بعد الموت (ثم إن علينا) وحدنا. (حسابهم) وجزاءهم، وإنما أخبر أوجبه على نفسه بقوله: "ثم إن علينا" ليبيّن أنه لن يترك حسابهم أبدًا.

---

[1] ومن ذلك أنها قادرة على إغلاق المنخرين حتى لا يضرها الهواء الحار، كما أن عندها حاسّة شمّ قوية تعرف بها قريناتها من على بُعد أكثر من عشرة كيلو، ولها شفتان إحداهما وهو العلوية مقطوعة لتتمكن من أكل الأعشاب الشوكية، كما أن لها عُنقًا طويلة، تقدر بها أن تأكل من الأرض إذا كانت واقفة، وتقدر بها أن تأكل من الأشجار الطويلة، وتحقق بها التوازن عند قيامها وعليها الأثقال، كما أن لها وبرًا قاسيًا يحميها من حر الصيف، ومن برد الشتاء، كما أنه يحميها من قرص الحشرات ولسعات الهوام، وهناك أشياء أخرى.

[2] ومن ذلك تحمّلها الكثير من الأثقال، وتحمّلها للحرارة الشديدة، وصبرها على ترك الماء مدة طويلة، ومن ذلك أنها تحفظ الود لراعيها، وتميّز صوته ولو بعد مُدة طويلة.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

وفي السورة فوائد: منها أن التفكر في الآيات الكونية يقود إلى الإيمان بالله تعالى، كالآيات الشرعية، وأن وظيفة الداعية هي الدعوة إلى الله، وليس عليه هداية الناس.

سورة الفجر (٨٩)

(مكية، وآياتها ثلاثون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

(والفجر * وليالٍ عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر * هل في ذلك قسم لذي حجر * ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يُخلق مثلها في البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذي الأوتاد * الذين طغوا في البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصبّ عليهم ربُّك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد *).

من مقاصد السورة بيان قدرة الله تعالى، وانتقام الله من المتمرّدين عن دينه، وتصحيح بعض الموازين الفاسدة للكفار.

(والفجر) أي: الصبح، وهو أول النهار [١]، وقد أقسم به في غير موضع كما في قوله: "والصبح إذا تنفّس". (وليالٍ عشرٍ) قيل: عشر ذي الحجة، قال الشيخ العثيمين: "والصحيح أنها العشر الأواخر من رمضان، لأن فضل العشر الأواخر في لياليها، وفضل عشر ذي الحجة فضلها في أيّامها". (والشفع) الزوج (والوتر) بفتح الواو وكسرها لغتان: الفرد (والليل إذا يسر) أي: إذا يذهب، فهو كقوله: "والليل إذ أدبر". (هل في ذلك) القسم (قسمٌ) مقنعٌ (لذي حجر) لذي عقل، فكلّ من كان عنده عقلٌ عرف أن هذه أشياء تستحقّ أن يُقسم بها، كأنه يقول: إن هذا لقسمٌ عظيمٌ عند ذوي العقول، وجواب القسم محذوف وهو "ليأخذنّ الله الكفّار"، ويدلّ على ذلك ما ذكره بعده من أخذ عاد، وثمود، وفرعون.

(ألم تر) تعلم يا محمد (كيف فعل ربّك بعاد) قوم نبيّ الله هود. (إرم) إرم: هي قبيلة عاد سُميت باسم أحد أجدادها، كما يقال: هاشم لبني هاشم، فإرم عطف بيان أو بدل، ومنع الصرف للعلمية والتأنيث [٢] (ذات العماد) أي: الطول كان طول الطويل منهم أربعمائة ذراع.

---

[١] وقيل: المراد فجر الجمعة، وقيل: صلاة الفجر. قال ابن جُزيّ: "ولا دليل على هذه التخصيصات".

[٢] وفائدته أن المراد عادًا الأولى، فإن عادًا الثانية لا يسمّون بهذا الاسم. وقيل: إرم اسم مدينتهم، فهو على حذف مضاف تقديره: بعاد عاد إرم.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

(التي) صفة للمدينة على الصحيح، ورجّحه ابن جُزيّ. (لم يُخلق) في قوّة أهلها (مثلها) تلك المدينة (في البلاد) الأرض (وثمود) أي: وألم تر كيف فعل ربّك بثمود (الذين جابوا) قطّعوا (الصخر) جمع صخرة واتّخذوها بيوتًا (بالواد) وادي القرى على طريق الشام من المدينة النبوية. (وفرعون) أي: وألم تر كيف فعل ربّك بفرعون (ذي الأوتاد) قيل إن الأوتاد هي الأهرام، وقيل: أوتاد خيام الجنود، وقيل: كانت له أربعة أوتاد يعذّب بها، يشدّ إليها يدي، ورجلي من يعذبه (الذين طغوا) تجبّروا (في البلاد) الأرض (فأكثروا فيها الفساد) من الكفر والظلم وسائر المعاصي (فصبّ عليهم ربك سوط) نوع (عذاب). وقيل: استعارة السوط للعذاب؛ لأنه يقتضي من التكرار ما لا يقتضيه السيف وغيره، قاله ابن عطية. (إن ربك لبالمرصاد) يرصد أعمال العباد، ليجازيهم عليها، فلا يفوته منها شيء. وفي ذلك تهديد لكفار قريش وغيرهم.

(فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربُّه فأكرمه ونعّمه فيقول ربي أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقَه فيقول ربي أهانن * كلّا بل لا تكرمون اليتيم * ولا تحاضّون على طعام المسكين * وتأكلون التراث أكلًا لّما * وتحبون المال حبًّا جمًّا *).

ولما كانت الأمم الهالكة المذكورة وغيرها قد أوتيت نعمًا كثيرةً من القوّة وغيرها، بيّن سبحانه أن النعم الكثيرة ليست دليلًا على رضا الله تعالى عن العباد، فقال تعالى: (فأما الإنسان) الكافر (إذا ما ابتلاه) اختبره (ربه فأكرمه) بالمال وغيره، إكرام تفضّل. (ونعّمه) بنعمة زائدة على غيره. (فيقول ربي أكرمن) لاستحقاقي لذلك الإكرام، ولأنه راضٍ عنّي. فيظنّ أن هذه هي الكرامة. (وأما إذا ما ابتلاه فقدر) ضيّق (عليه رزقه، فيقول ربي أهانن). وهذا ميزان الكافر، أما المؤمن فيعلم أن الله تعالى يكرم العبد بالإيمان به واتّباع رسله، وهذا هو الحقّ.

قال تعالى: (كلّا) للردع، أي: ليس الغنى إكرامًا، ولا الفقر إهانةً بإطلاق، وإنما الميزان في ذلك هو بالطاعة والمعصية، وكفار مكة لا ينتبهون لذلك. (بل) إضراب انتقالي (لا تكرمون اليتيم) لا تحسنون إليه مع غناكم، أو لا تعطونه حقه من الميراث (ولا تحاضّون) أي: لا تحثّون أنفسكم أو تحثّون غيركم (على طعام) أي: إطعام (المسكين) المحتاج. (وتأكلون التراث) التراث: هو ما يورث عن الميت من المال. (أكلًا لما) أي: شديدًا، مأخوذ من اللمّ وهو الضمّ، لأنهم يلمّون نصيب النساء والصبيان من الميراث مع نصيبهم منه، أو مع مالهم. والعرب في الجاهلية كانوا لا يعطون من الميراث أنثى ولا صغيرًا، بل ينفرد به الرجال. (وتحبون المال حبًّا جمًّا) أي: شديدًا كثيرًا، وهذا ذمٌّ للمبالغة في حبّ المال، فكيف إذا أضيف إلى ذلك تفريط في واجب، أو وقوع في حرام.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

(كلّا إذا دُكّت الأرض دكًّا دكًّا * وجاء ربك والملك صفًّا صفًّا * وجيء يومئذ بجهنّم يومئذ يتذكّر الإنسان وأنى له الذكرى * يقول يا ليتني قدّمت لحياتي * فيومئذ لا يعذّب عذابَه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد *).

(كلا) ردع لهم عن ذلك، بمعنى لا ينبغي أن تفعلوا مثل ذلك، واذكروا يوم القيامة (إذا دكت الأرض دكًّا دكًّا) دكًّا بعد دكّ، أي: زلزلت الأرض حتى ينهدم كل بناء عليها وينعدم (وجاء ربك) مجيئًا يليق بجلاله (والملك) أي: الملائكة (صفًّا صفًّا) حال أي: مصطفين، أو ذوي صفوف كثيرة.

(وجيء يومئذ بجهنم) تقاد بسبعين ألف زمام، كل زمام بأيدي سبعين ألف ملك كما جاء في "صحيح مسلم" عن ابن مسعود موقوفًا لكن له حكم الرفع، ويكون لها تغيّظٌ وزفير (يومئذ) بدل من إذا وجوابها (يتذكّر الإنسان) أي: الكافر ما فرّط فيه. (وأنى له) الانتفاع بهذه (الذكرى) استفهام بمعنى النفي، أي: لا ينفعه تذكّره ذلك، لأنه يوم جزاء لا يوم عمل. (يقول) مع تذكره (يا) للتنبيه (ليتني قدّمت) الإيمان والأعمال الصالحة (لحياتي) الطيبة في الآخرة، أو وقت حياتي في الدنيا (فيومئذ لا يعذب) بكسر الذال (عذابه) أي: الله (أحد) أي لا يكله إلى غيره. (و) كذا (لا يوثق) بكسر الثاء (وثاقه أحد) لأن عذاب الله أشدّ وأبقى. وفي قراءة بفتح الذال والثاء فضمير عذابه ووثاقه للكافر، والمعنى لا يعذب أحد مثل تعذيبه، ولا يوثق مثل إيثاقه.

(يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربّك راضيةً مرضيّة * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي *).

ولما ذكر جزاء الكفار، ذكر جزاء المؤمنين فقال: (يا أيتها النفس المطمئنة) أي: الموقنة يقينًا قد اطمئنت به بحيث لا يتطرّق إليها شك في الإيمان. (ارجعي إلى ربك) يقال لها ذلك عند الموت، وقيل: عند البعث، وقيل: عند انصراف الناس إلى الجنة أو النار، قال ابن جزيّ: "والأول أرجح". (راضيّة) عنه بما تنالين من الثواب (مرضيّة) عند الله بعملك، أي: جامعة بين الوصفين وهما حالان، ويقال لها في القيامة : (فادخلي في) جملة (عبادي) الصالحين (وادخلي) معهم (جنتي) التي أعددتها لهم، فهذه هي الكرامة التي ينبغي يسعى لها العباد، وليس الغنى كما يظنّ الكافر.

وأضيفت الجنة إلى الله تعالى لتشريفها وتكريمها. قيل إنها نزلت في شخص بعينه، قال ابن جزيّ: "ولفظها يعمّ كل نفس مطمئنة".

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

من فوائد السورة: فضل الفجر، وفضل العشر، لأن الله أقسم بهما، وتشريف الأوقات يعتبر تشريفًا للعبادة فيها، فيدخل في ذلك صلاة الفجر، والاجتهاد بأنواع العبادات في العشر، وفيها أن المؤمن إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وفيها ثبوت صفة المجيء لله تعالى، وهي من الصفات الاختيارية.

سورة البلد (٩٠)

(مكية وآياتها عشرون).

بسم الله الرحمن الرحيم

(لا أقسم بهذا البلد * وأنت حلٌّ بهذا البلد * ووالد وما ولد * لقد خلقنا الإنسان في كبد * أيحسب أن لن يقدر عليه أحد * يقول أهلكت مالًا لبدًا * أيحسب أن لم يره أحد * ألم نجعل له عينين * ولسانًا وشفتين * وهديناه النجدين * فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فكّ رقبة * أو إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيمًا ذا مقربة * أو مسكينًا ذا متربة * ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة * أولئك أصحاب الميمنة * والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة * عليهم نار مؤصدة *).

من مقاصد السورة بيان خسارة الإنسان إلا من آمن وعمل صالحًا.

(لا) زائدة (أقسم بهذا البلد) الحرام وهي مكة (وأنت) يا محمد (حلّ) مقيمٌ [1] (بهذا البلد) فالجملة اعتراض بين المقسم به، وما عطف عليه. (ووالدٍ) كل والد من الإنسان وغيره (وما ولد) أي: ذرّيته وما بمعنى من، وفيه التنبيه على عظم آية التناسل والتوالد، ودلالتها على قدرة الله تعالى.

(لقد خلقنا الإنسان) أي: جنس الإنسان (في كبدٍ) نصب وشدّة، يكابد مصائب الدنيا حتى يموت، فإذا مات كابد شدائد القبر، وأهوال الدار الآخرة، (أيحسب) أيظنّ الإنسان بقوته حتى وإن كفر وعصى الله تعالى (أن) مخفّفة من الثقيلة واسمها محذوف أي: أنه (لن يقدر عليه أحدٌ) وإن كان ربّه الذي خلقه ؟!. (يقول أهلكت) أنفقت (مالًا لُبدًا) كثيرًا متراكمًا بعضه على بعض، (أيحسب) هذا المتباهي بما ينفقه (أن) أي: أنه (لم يره أحدٌ) فيما أنفقه ؟! وأنه لن يسأله. (ألم نجعل) استفهام تقرير أي: جعلنا (له عينين) يبصر بهما. (ولسانًا وشفتين) يتحدّث بهما. (وهديناه النجدين) بيّنا له طريق الخير، وطريق الشرّ حتى صار الطريقان واضحين كالمكانين المرتفعين.

---

[1] وقيل: وأنت حلالٌ بأن يحل لك فتقاتل فيه، قالوا: وقد أنجز الله له هذا الوعد يوم فتح مكة.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

(فلا) فهلّا (اقتحم) جاوز (العقبة) التي تفصله عن الجنّة، وهي عقبة ضعف النفس، واتّباع الهوى. (وما أدراك) أعلمك (ما العقبة) التي يقتحمها تعظيمًا لشأنها، (فكّ رقبة) من الرّقّ بأن يعتقها ذكرًا كان أو أنثى (أو إطعام في يوم ذي مسغبة) مجاعة (يتيمًا) مات والده وهو صغير ما لم يبلغ الحلم (ذا مقربة) قرابة (أو مسكينًا ذا متربة) لصوق بالتراب لفقره، (ثم كان) عطف على اقتحم، وثمّ للترتيب الذكري، والمعنى كان وقت الاقتحام (من الذين آمنوا وتواصوا) أوصى بعضهم بعضًا (بالصبر) على الطاعة وعن المعصية (وتواصوا) أوصى بعضهم بعضًا (بالمرحمة) برحمة الخلق. (أولئك) الموصوفون بهذه الصفات (أصحاب الميمنة) اليمين (والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة) الشمال (عليهم نار مؤصدة) مغلقة عليهم يعذّبون فيها لا يخرجون منها، فيها أن عذاب النار لا يفنى، وأن الكفار لا يخرجون من النار.

ومن فوائد الآيات: بيان شرف مكة، وبيان فضلها على سائر البلاد، وفيها أن التناسل من آيات الله، وفيها فضل عتق الرقاب، وإطعام الطعام ولاسيّما وقت الشدّة، وأن ذلك من أعمال أهل الإيمان، وأن ذلك مع التواصي بالحقّ من أسباب دخول الجنة.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة الشمس (٩١)

(مكية، وآياتها خمس عشرة)

بسم الله الرحمن الرحيم

(والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلّاها * والليل إذا يغشاها * والسماء وما بناها * والأرض وما طحاها * ونفس وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكّاها * وقد خاب من دسّاها * كذبت ثمود بطغواها * إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقةَ الله وسقياها * فكذّبوه فعقروها، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها *).

من مقاصد السورة التفكّر في آيات الله الكونية، دعوةً للتوحيد، وتحذيرًا من الشرك.

أقسم تعالى بالشمس وقت ارتفاعها فقال (والشمس وضحاها) الضحى من ارتفاع الشمس إلى قبيل الزوال، وهو وقت تمام الضياء. (والقمر إذا تلاها) أي: تبعها طالعًا عند غروبها. (والنهار إذا جلّاها) إذا جلّى الأرض بضوئه، ويكون ذلك عند ارتفاعه. (والليل إذا يغشاها) يغطيها بظلمته، وإذا في الثلاثة لمجرد الظرفية، والعامل فيها فعل القسم. (والسماء وما بناها) يحتمل أن تكون "ما" هنا مصدريّة، بمعنى: والسماء وبنائها. ويحتمل أن تكون موصولة بمعنى "الذي" فتكون بمعنى: والسماء وبانيها. وكلاهما متلازمٌ، والبناء هو الرفع. وهذا ملخّص كلام ابن كثير في "تفسيره".

(والأرض وما طحاها) بسطها من كلّ جانب. (ونفس) كلّ نفس (وما سوّاها) أوجدها وسوّى أعضاءها، وركّب فيها الروح، وجعل فيها القوى النفسية الهائلة، والإدراكات العجيبة، وجعل مستقيمة على الفطرة، وما في الثلاثة مصدرية أو بمعنى من.

(فألهمها فجورها وتقواها) بيّن لها طريق الخير والشرّ، والتقوى خيرٌ من الفجور، لكن أخّر القرآن التقوى عن الفجور مراعاة لرؤوس الآيات، وجواب القسم: (قد أفلح) حذفت منه اللام لطول الكلام (من زكاها) النفس، أي: طهرها من الشرك والذنوب (وقد خاب) خسر (من دسّاها) أخفاها بالمعصية، وأصله دسسها، لكن أبدلت السين الثانية ألفًا تخفيفًا (كذّبت ثمود) رسولَها صالحًا (بطغواها) بسبب طغيانها، والطغيان مجاوز الحدّ. (إذ) حين (انبعث) أسرع (أشقاها) أشقى ثمود، قيل: اسمه قدار بن سالف، حيث عقر الناقة برضاهم.

(فقال لهم رسول الله) صالح (ناقة الله) أي: ذروها (وسقياها) شربها، أي: اتركوها تشرب في يومها، وكان لها يوم ولهم يوم. (فكذّبوه) في قوله ذلك، ومخالفته يترتب عليها نزول العذاب بهم.

(فعقروها) قتلوها ليسلم لهم ما تشربه (فدمدم) أطبق (عليهم ربهم) العذاب (بذنبهم فسواها) أي: سوّى الأرض عليهم، فجعلهم تحت التراب، والمعنى أنه عمّهم بها فلم يُفلت منهم أحد.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

(ولا يخاف) الله (عقباها) تبعتها، والمراد أن الله تعالى لا يخاف عاقبة إهلاكهم، كما يخاف الملوك عادةً من عاقبة بعض أعمالهم، وفي ذلك تحقيرٌ لشأن المكذّبين، أو أنه ربّهم وأنهم عبيده.

وقيل: إن ضمير الفاعل في "يخاف" لصالح، وقيل ضمير الفاعل لأشقى القوم. والصحيح هو القول الأول، وقال ابن كثير إنه الأولى، لأن سياق الضمائر يدلّ على أن المراد هو الله تعالى.

ومن فوائد السورة: الدعوة إلى التفكّر في آيات الله الكونية، والتحذير من مخالفة الرسل، والاعتبار بعاقبة من كذّبوا الرسل، وفيها تنزيه الله تعالى عن صفة الخوف.

سورة الليل (٩٢)

(مكية وآياتها إحدى وعشرون)

بسم الله الرحمن الرحيم

(والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلّى * وما خلق الذكر والأنثى * إن سعيكم لشتى * فأما من أعطى واتقى * وصدّق بالحسنى * فسنيسّره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى * وما يغني عنه ماله إذا تردّى * إن علينا للهدى * وإن لنا للآخرة والأولى * فأنذرتكم نارًا تلظّى * لا يصلاها إلا الأشقى * الذي كذّب وتولى * وسيجنبها الأتقى * الذي يؤتي ماله يتزكّى * وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى *).

من مقاصد السورة بيان اختلاف الأنفس في الإيمان والأعمال، إظهارًا للفرق بين المؤمنين والكافرين، ولذلك بدأها بالكلام على آيتي الليل والنهار، والذكر والأنثى، إشارة إلى الفرق بينهما.

(والليل إذا يغشى) بظلمته كلّ ما بين السماء والأرض (والنهار إذا تجلّى) تكشّف وظهر، وإذا في الموضعين لمجرّد الظرفية، والعامل فيها فعل القسم (وما خلق الذكر والأنثى) قد يراد بما أنها بمعنى "الذي"، فيكون المراد القسم بالخالق، وقد يراد بها ما مصدرية فيكون القسم بخلق الذكر والأنثى، والصحيح هو الثاني، إذ لو كان المراد هو الأول لما قدّم الله القسم بالليل والنهار على نفسه الكريمة، وأيضًا جاء في قراءة ابن مسعود المنسوخة أنه كان يقرأ: "والذكر والأنثى".

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

والمراد بالذكر والأنثى كلّ ذكر وكل أنثى على الصحيح [1]، (إن سعيكم) عملكم (لشتى) مختلفٌ، فعامل للجنة بالطاعة، وعامل للنار بالمعصية (فأما من أعطى) ما يلزمه بذله من الزكاة والنفقة، والكفّارة، وغيرها (واتقى) الله، أو اتّقى ما نهاه الله عنه (وصدّق بالحسنى) أي: بلا إله إلا الله في الموضعين (فسنيسّره) فسنسهّل عليه العمل الصالح الذي يوصله (لليسرى) للجنة (وأما من بخل) بما يلزمه بذله من المال (واستغنى) بما عنده عما عند الله تعالى (وكذب بالحسنى) أي: بلا إله إلا الله (فسنيسّره) فسنسهّل عليه العمل الفاسد الذي يوصله (للعسرى) للنار. (وما) نافية (يغني عنه ماله إذا تردّى) في النار.

(إن علينا للهدى) أي: أوجبنا على أنفسنا أن نبيّن للناس طريق الحقّ من طريق الضلال، ليمتثل الناس طريق الحقّ، ويحذروا طريق الضلال (وإن لنا) وحدنا دون غيرنا (للآخرة والأولى) أي: الدنيا والآخرة، فمن أرادهما فليطلبهما من الله، فمن طلبهما من غيره فقد ضلّ.

(فأنذرتكم) خوّفتكم، ومراد به عموم الناس ولاسيّما أهل مكة. (نارًا تلظّى) بحذف إحدى التاءين من الأصل، وقرئ بثبوتها "تتلظّى" أي: تتوقّد (لا يصلاها) على التأبيد (إلا الأشقى). [2] قيل إن الأشقى هنا بمعنى الشقيّ، والصواب أنه على ظاهره الأشقى، والشقيّ من فيه نوع شقاء لا يخلد فيها. [3] (الذي كذّب) النبيّ (وتولّى) عن الإيمان، (وسيُجنبها) يبعد (الأتقى) قيل إن الأتقى هنا بمعنى التقيّ، والصواب أنه على ظاهره الأتقى، والتقيّ من فيه نوع تقوى وهو الذي اتّقى الكفر، فهذا قد يدخلها لكن لن يخلد فيها. (الذي يؤتي ماله يتزكّى) متزكيًّا به عند الله تعالى بأن يخرجه لله تعالى لا رياء ولا سمعة، فيكون زاكيًا عند الله، وهذه الآية نزلت في الصديق – رضي الله عنه – لما اشترى بلالًا المعذّب على إيمانه، وأعتقه فقال الكفار: إنما فعل ذلك ليدٍ كانت له عنده، فنزلت: (وما لأحد عنده من نعمة تُجزى) يقابلها بما فعل (إلا) لكن فعل ذلك (ابتغاء) قصْد (وجه ربّه

---

[1] والخنثى المشكل ذكر أو أنثى، فمن حلف أن لا يكلم ذكرًا ولا أنثى، فإنه يحنث إذا كلّم الخنثى على قول، وقيل لا يحنث.

[2] ردًّا على المرجئة الذين قالوا إن الآية تدلّ على أن المؤمنين لا يدخلون النار مطلقًا، وأجيب عنه من وجهين: أحدها: – أن المراد الخلود في النار. والثاني: أن المراد نارٌ مخصوصة.

[3] لأن الناس على ثلاثة أقسام: أحدهم: مؤمن أتقى. والثاني: كافر أشقى. والثالث: عاصٍ اجتمع فيه تقوى وشقاء بحسبه.

فالله تعالى وعد الأتقى بأنه سيتجنّبها، وأوعد الأشقى بأنه سيصلاها، والعاصي الذي اجتمع فيه شقاء وتقوى فإنه يرجع إلى مشيئة الله، فقد يدخلها وقد لا يدخلها، وإذا دخلها فإنه لا يخلّد فيها.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

الأعلى) الذي لا أحد فوقه. (ولسوف يرضى) أي: ولسوف يرضى العبد بما يعطيه الله من الثواب في الجنة.

وقد ذكر المفسرون أن الآية نزلت في أبي بكر، وقد حكى بعضهم الإجماع على ذلك، وذكر ابن كثير في "تفسيره": أنه داخلٌ في الآية بدون شك، وأنه أولى الأمة بعمومها، لكن الآية عامّة في كلّ من اتّصف بهذه الصفات، وتشمل من فعل مثل فعل أبي بكر – رضي الله تعالى عنه –.

سورة الضحى (٩٣)

(مكية، وآياتها إحدى عشرة)

لما نزلت كبّر – صلى الله عليه وسلم – آخرها، فسنّ التكبير آخرها، وروي الأمر به خاتمتها، وخاتمة كل سورة بعدها، وهو الله أكبر، أو: لا إله إلا الله والله أكبر. [١]

بسم الله الرحمن الرحيم

(والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خيرٌ لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربّك فترضى * ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالًا فهدى * ووجدك عائلًا فأغنى * فأمّا اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدّث *).

من مقاصد السورة بيان رعاية الله لنبيّه، وامتنانه عليه بنعمة الوحي، والردّ على المشركين، فإنه لما فتر الوحي خمسة عشر يومًا قال المشركون: "إن محمدًا قد ودّعه ربّه وقلاه".

ومن ذلك تذكير بالمؤمنين بالشكر.

(والضحى) أي: أوّل النهار (والليل إذا سجى) غطّى الأرض بظلامه، والتسجية: تغطية الشيء، ومنه تسجية الرجل بالثوب بمعنى تغطيته به. (ما ودّعك) تركك (ربك) يا محمّد (وما قلى) أبغضك كما يقول المشركون. (وللآخرة خيرٌ لك) لما فيها من النعيم العظيم الذي لا ينقطع (من الأولى) الدنيا. (ولسوف يعطيك ربّك) في الآخرة عطاء جزيلًا لك ولأمتك. (فترضى) به.

---

[١] وكان سبب التكبير أن الوحي لما انقطع قال المشركون هجره شيطانه، وودعه، فاغتمّ النبي – صلى الله عليه وسلم – لذلك، فلما نزلت "والضحى" كبّر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فرحًا بنزول الوحي، فاتّخذوه سنة. قال ابن كثير: "ولم يُرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحةٍ ولا ضعفٍ" ا.هـ

وانظر في ذلك "التبيان في آداب حملة القرآن" للنووي.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

وجواب القسم أربعة أشياء اثنان منها منفيّان وهما: "ما ودعك ربك، وما قلى" واثنان مثبتان وهما: "وللآخرة خيرٌ لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى".

(ألم يجدك) استفهام تقرير أي: لقد وجدك (يتيمًا) بفقد أبيك قبل ولادتك على الصحيح ورجّحه ابن كثير في السيرة من "البداية والنهاية"، أو بعدها على قول. (فآوى) هيّأ لك من يعتني بك، بأن ضمّتك أمك، ثم ضمّك إلى جدّك عبد المطلب، ثم إلى عمّك أبي طالب. (ووجدك ضالًا) لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان. (فهدى) أي: هداك إليهما وعلمك إيّاهما (ووجدك عائلًا) فقيرًا (فأغنى) أغناك بما قنعك به من الغنيمة وغيرها. (فأما اليتيم) وهو الصغير الذي مات أبوه قبل البلوغ، وينتهي اليُتم بالاحتلام. (فلا تقهر) بأخذ ماله أو غير ذلك. ويدخل فيه كلّ ضعيف كالأرملة والشيخ الكبير. (وأما السائل فلا تنهر) تزجره. (وأما بنعمة ربك) عليك بالنبوة وغيرها من نعم الدنيا والآخرة. (فحدّث) أخبر غيرك بها، وحذف الضمير في بعض الأفعال رعاية للفواصل.

من فوائد السورة: بيان منزلة النبيّ – صلى الله عليه وسلم – عند ربه، ووجوب الرحمة بالمستضعفين، ووجوب شكر النعم، والتحدّث بها على سبيل التواضع لا التفاخر.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة الشرح (٩٤)

(مكية، وآياتها ثمان).

بسم الله الرحمن الرحيم

(ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذي أنقض ظهرك * ورفعنا لك ذكرك * فإن مع العسر يسرًا * إن مع العسر يسرًا * فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب *).

من مقاصد السورة ذكر إتمام منّة الله على نبيّه بزوال الغمّ، والحرج، والعسر، وما يوجب ذلك.

(ألم نشرح) استفهام تقرير أي: لقد شرحنا، وشرح الصدر هو توسعته، وتليين القلب بالنبوة، والإيمان، والعلم، والحكمة. (لك) يا محمد (صدرك) بالنبوة وغيرها (ووضعنا) حططنا (عنك وزرك) أي: ذنبك. [1] (الذي أنقض) أثقل (ظهرك) كقوله تعالى: "ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك". (ورفعنا لك ذكرك) بأن تذكر في مواضع كثيرة: منها الشهادتان، ومنها أن تُذكر مع ذكر الله في الأذان، والإقامة، والتشهّد، والخطبة، وغيرها، ومنها الأمر بالاقتداء بالنبي – صلى الله عليه وسلم –، ، ومنها الصلاة عليه كلما ذُكر، ومنها غير ذلك.

(فإن مع العسر) الشدة (يسرًا) سهولة، لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – قاسى من الكفار كثيرًا من الشدّائد، فأنزل الله عليه هؤلاء الآيات لتهوّن هذه الشدائد عليه وعلى المؤمنين، فحصل لهم اليسر بالنصر على الكفار. (إن مع العسر يسرًا) كرّره لتأكيد الوعد وتعظيم الرجاء. (فإذا فرغت) من شُغلك (فانصب) فاجتهد (وإلى ربك) وحده (فارغب) فتضرّع.

من فوائد السورة: بيان منزلة النبيّ – صلى الله عليه وسلم – عند ربه، وما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من قوة الرجاء.

---

[1] قيل المراد ما كان قبل النبوة، وقيل هي ذنوب الأمة أضيفت إليه.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة التين (٩٥)

(مكية، وآياتها ثمان)

بسم الله الرحمن الرحيم

(والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غير ممنون * فما يكذّبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين *).

من مقاصد السورة أن قيمة الإنسان تكون بتمسّكه بدينه، وأن هوانه يكون بتخلّيه عن دينه.

(والتين) الذي يؤكل (والزيتون) الذي يُعصر منه زيت الزيتون، وهما كناية عن أرض فلسطين، لأنهما ينبتان التين والزيتون، وقيل بل هما موضعان في فلسطين، وهما مكان نزول الوحي على النبيّ عيسى وآخرين، ورجّح ابن جزيّ في "تفسيره". [١] ورجّح العلامة ابن القيّم في "التبيان" القول الأول، أي: أن المراد في الآية التين المأكول، والزيتون المعصور، ثم قال: "ولا ينافي أن يكون منبته مرادًا". [٢]

(وطور سينين) الجبل الذي كلّم الله تعالى موسى عنده، ومعنى سينين المبارك فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، وقيل الحسن بالأشجار المثمرة، واحده سينة. (وهذا البلد الأمين) مكة لأمن الناس فيها جاهلية وإسلامًا، وهو المكان الذي نزل فيه الوحي على محمد – صلى الله عليه وسلم –. يقسم تعالى بالمواضع التي نزل فيها الوحي، ونزلت فيها الكتب التي أضاءت النور للبشرية.

(لقد خلقنا الإنسان) جنس الإنسان (في أحسن) أعدل (تقويم) صورة وهيئة وشكل. [٣] (ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) مقطوع، وقيل غير ممنون به عليهم، والصحيح الأوّل واختاره ابن القيّم.

وفي تفسير "أحسن تقويم" قولان: أحدهما: – أن أحسن التقويم هو حسن الصورة، وكمال العقل، وقوّة الشباب، وأسفل سافلين هو الضعف، والهرم، والخوف، فهو كقوله تعالى: "ومن نعمّره ننكّسه في الخلق". وكقوله: "ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة".

---

[١] قال ابن جُزيّ: "والأظهر أنهما الموضعان من الشام، وهما اللذان كان فيهما مولد عيسى ومسكنه".

[٢] "التبيان في أقسام القرآن" (ص ٥٤).

[٣] وهذا ردٌّ على من يقول بأن أصل الإنسان قردٌ، وهي نظرية كفر.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

قالوا: إن قوله: "إلا الذين آمنوا" بعد هذا غير متّصل بما قبله، والاستثناء على هذا القول منقطع بمعنى لكن، لأنه خارج عن معنى الكلام الأول.

والقول الثاني: – أن حسن التقويم: هو حسن الخلقة، وسلامة الفطرة، وأسفل سافلين احتراق هذه الصورة في النار، والاستثناء على هذا متصل، لأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لم يردوا أسفل سافلين. واختار هذا القول العلامة ابن القيّم في "التبيان" ورجّحه من عشرة أوجه. [1]

قوله: (فما يكذّبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين). في تفسيرها قولان: أحدهما: – أنه خطاب للنبي – صلى الله عليه وسلم – والدين هنا هو شريعته، والمعنى أي شيء يكذّبك في الدين بعد هذه الدلائل التي تشهد بصحة نبوتك.

والقول الثاني: – أنه خطاب للإنسان الكافر، وهو الذي صحّحه العلامة ابن القيّم. [2]

والدين هنا هو الإسلام، أو الجزاء الأخروي، ومعنى يكذبك يجعلك تكذّب، أي: فما الذي يجعلك تكذّب بيوم القيامة، وما يكون فيه من الحساب، والجزاء، بعد أن علمت أن الله خلقك في أحسن تقويم، ثم ردك أسفل سافلين، لأن الذي يقدر على ذلك قادر كذلك على بعث الناس ومحاسبتهم وجزائهم، فلأي شيء تكذب بالبعث و الجزاء ؟!.

(فما يكذّبك) أيها الكافر (بعد)أي: بعد ما ذكرناه (بالدين) بالجزاء المسبوق بالبعث والحساب أي: ما يجعلك مكذبًا بذلك، (أليس الله بأحكم) أحسن (الحاكمين).

تقرير للكافر بأن حكم الله عليهم إنما يكون بما يستحقّون، ومن ذلك حكمه بأن من كفر فيكون مصيره إلى النار، ومن آمن به فيكون مصيره إلى الجنة.

وجاء في "سنن أبي داود" و"سنن الترمذي" أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان إذا قرأها قال: "بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين"، وفي الإسناد ضعفٌ [3]، لكن نقل الشيخ محمد عطية سالم – رحمه الله – في "تتمة أضواء البيان" إجماع المفسرين على العمل بهذه الرواية. [4]

---

[1] "التبيان في أقسام القرآن" (ص ٥٦ – ٥٨).

[2] "التبيان في أقسام القرآن" (ص ٦١).

[3] ضعّفه العلامة الألباني في "تمام المنة" (ص١٨٦)، و"ضعيف أبي داود".

[4] يمكن قول: "وأنا على ذلك من الشاهدين" بناءًا على ما جاء من الإجماع، لا ما ورد من الرواية، ويمكن قوله بناءًا على تقوية الرواية بالإجماع المذكور.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

قال الشيخ عطية محمد سالم: "وقد اتفق المفسرون على رواية الترمذي لحديث أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعًا: "من قرأ والتين والزيتون، فقرأ أليس الله بأحكم الحاكمين، فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين".

سورة العلق (٩٦)

(مكية، وآياتها تسع عشرة)

بسم الله الرحمن الرحيم

(اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم * كلّا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى * إن إلى ربك الرجعى * أرأيت الذي ينهى * عبدًا إذا صلّى * أرأيت إن كان على الهدى * أو أمر بالتقوى * أرأيت إن كذب وتولى * ألم يعلم بأن الله يرى * كلّا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة * فليدع ناديه * سندع الزبانية * كلا لا تطعه، واسجد واقترب *).

من مقاصد السورة بيان أن كمال الإنسان بالعلم والوحي، وذلك باعثٌ له على تعلّقه بربّه وخضوعه له وفوات ذلك بقدر مخالفته.

(اقرأ) اتل المقروء مبتدئًا (باسم ربك الذي خلق) الخلائق (خلق) جنس (الإنسان من علق) جمع علقة، وهي القطعة اليسيرة من الدم الغليظ (اقرأ) تأكيد للأول (وربّك الأكرم) الذي لا يوازيه كرمه وجوده أحدٌ، حال من الضمير في إقرأ (الذي علّم) الخطّ والكتابة (بالقلم) وقد قيل: أول من خطّ به إدريس عليه السلام (علّم الإنسان) المراد جنسه لا أحدًا بعينه (ما لم يعلم) قبل تعليمه من الهدى، والكتابة، والصناعة، وغيرها.

(كلّا) حقًّا (إن الإنسان ليطغى) ليتجاوز (أن رآه) أي: رأى نفسه (استغنى) بالمال والجاه، نزلت في أبي جهل، ورأى علمية، واستغنى مفعول ثانٍ، وأن رآه مفعول له.

فيا أيها الإنسان (إن إلى ربك) وحده (الرجعى) أي: الرجوع، فيجازي الطاغي بما يستحقه، وهذا تخويف له. (أرأيت) في الثلاثة المواضع للتعجّب (الذي ينهى) هو أبو جهل (عبدًا) هو النبيّ – صلى الله عليه وسلم – (إذا صلّى) لله تعالى (أرأيت إن كان) المنهيُّ (على الهدى) على الحقّ (أو) للتقسيم (أمر بالتقوى) بامتثال الأوارم واجتناب النواهي. أيُنهى من كان هذا شأنه.

(أرأيت إن كذّب) أي: الناهي النبيّ (وتولّى) عن الإيمان (ألم يعلم بأن الله يرى) ما صدر منه، أي: يعلمه فيجازي عليه، أي: اعجب منه يا مخاطب من حيث نهيه عن الصلاة، ومن حيث أن المنهي على الهدى، آمرٌ بالتقوى، ومن حيث أن الناهي مكذّب متولّ عن الإيمان (كلّا) ردع له (لئن) لام

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

قسم (لم ينته) عما هو عليه من الكفر (لنسفعا) لنجرّن (بالناصية) بناصيته إلى النار، والناصية مقدّم الرأس. (ناصية) بدل نكرة من معرفة (كاذبة) في القول (خاطئة) في الفعل، والمراد صاحب الناصية، فإذا أُخذ بناصيته إلى النار (فليدع) حينها (ناديه) أي: أهل ناديه، وهو المجلس ينتدى يتحدّث فيه القوم، وكان قال النبي – صلى الله عليه وسلم – لما انتهره حيث نهاه عن الصلاة: لقد علمت ما بها رجل أكثر ناديًا منّي، لأملأن عليك هذا الوادي إن شئت خيلًا جردًا ورجالًا مردًا (سندع الزبانية) الملائكة الغلاظ الشداد لإهلاكه، كما في الحديث: "لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عيانًا". (كلّا) ردع وزجر، والمراد أنه لن يصل إليك. (لا تطعه) يا محمد في ترك الصلاة (واسجد) أي: صلّ لله (واقترب) منه بطاعته.

من فوائد السورة: حثّ الإنسان – ولاسيّما المسلم – على العلم والتعلّم بالقلم وغيره، وأن الغنى يجرّ إلى الكبر والطغيان غالبًا إذا لم يغلّبه العبد بتقوى الله.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة القدر (٩٧)

(مكية أو مدنية، وآياتها خمس أو ستّ).

بسم الله الرحمن الرحيم

(إنا أنزلناه في ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر * تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلامٌ هي حتى مطلع الفجر).

من مقاصد السورة التنبيه على فضل القرآن، ومكانته عند الله تعالى، والرد على المشركين وغيرهم من أهل الضلال ممن جحد نزول القرآن، والتنبيه على فضل ليلة القدر، ومكانتها عند الله تعالى، وتحريض المؤمنين على قيامها، واغتنامها لأنها ليلة عظيمة.

(إنا أنزلناه) أي: القرآن، ولم يذكر ربنا القرآن باللفظ الصريح فلم يقل إنا أنزلنا القرآن، وإنما أشار إليه بالضمير فقط، والسبب في ذلك أمران:

أحدهما: – جاءت سورة القدر بعد سورة العلق، وهذا من حسن الترتيب، فعاد الضمير في قوله تعالى: "إنا أنزلناه" إلى القرآن الذي ذكر الله في سورة العلق ابتداء نزوله.

والثاني: – أن القرآن حاضرٌ في أذهان المسلمين لشدّة إقبالهم عليه، فلا يحتاج إلى توضيح.

فالقرآن أنزله الله تعالى في رمضان كما قال تعالى: "شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن". وكان إنزاله (في ليلة القدر). وهي ليلة في العشر الأواخر من رمضان، وقد نزل إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم نزل مفرّقًا منجّمًا على حسب الأحداث، كما جاء ذلك بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفا عليه. [١]

ومن هنا نستطيع أن نجمع بين النصوص التي ذكرت أن القرآن نزل في رمضان، كقوله تعالى: "شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن" وقوله تعالى: "إنا أنزلناه في ليلة القدر". والنصوص التي تذكر أن القرآن نزل مفرقًا كقوله تعالى: "وقال الذين كفروا لولا نزل هذا القرآن جملة واحدة، كذلك" – أي: كذلك أنزلناه مفرقًا – "لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلًا". وقوله تعالى: "ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرًا".

فنجمع بينها بأن نقول: إن القرآن نزل في رمضان إلى بيت العزّة في السماء الدنيا، ثم نزّل مفرقًا إلى الأرض على حسب الحوادث.

---

[١] صحّحه الحافظ ابن حجر، وأقرّه السيوطي في "الإتقان".

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

وسميت ليلة القدر من التقدير، قال تعالى: "فيها يفرق كل أمر حكيم * أمرًا من عندنا". وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: "يقدّر أمر السنة كلها في ليلة القدر". [1]

ويقول تعالى: "وما أدراك ما ليلة القدر". وهذا أسلوب تستعمله العرب لبيان عظمة الشيء وفخامة أمره. "ليلة القدر خير من ألف شهر". أي: تعادل عبادتها وقيامها ألف شهر، وهو اختيار ابن جرير وابن كثير. [2] ونلاحظ هنا أنهم لا يخصّون فضل ليلة القدر بقيامها فقط، بل بجميع عباداتها، من قيام وغيره.

(تنزّل الملائكة) فمعناه تنزل الملائكة في هذه الليلة شيئًا فشيئًا، وإنما تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة تنزل مع كثرة البركة، وعظمة الرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن، وعندما يحيطون بحلقات الذكر.

(تنزل الملائكة والروح فيها). والروح هو جبريل، وهو من الملائكة، فيكون من باب عطف الخاص على العام كما في قوله تعالى: "من كان عدوًا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين". والمراد من هذا العطف بيان ما له من مكانة عظيمة عند الله تعالى.

(بإذن ربهم) أي: وهذا التنزّل إنما هو بإذن ربهم، وهذا من حسن أدب الملائكة، والله تعالى يقول عنهم: "وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك، وما كان ربك نسيًا".

---

[1] قال العلامة ابن القيم في "شفاء العليل":

"وهذا هو الصحيح أن القدر مصدر قدر الشيء يقدره قدرًا فهي ليلة الحكم والتقدير، وقالت طائفة: "ليلة القدر ليلة الشرف والعظمة من قولهم لفلان قدر في الناس". فإن أراد صاحب هذا القول أن لها قدرًا وشرفًا مع ما يكون فيها من التقدير فقد أصاب، وإن أراد أن معنى القدر فيها هو الشرف والخطر فقد غلط أن الله سبحانه أخبر أن فيها يفرق أي: يفصل الله ويبين ويبرم كل أمر حكيم" ا.هـ

[2] قال ابن جرير في "تفسيره": "وأشبه الأقوال في ذلك بظاهر التنزيل قول من قال: "عمل في ليلة القدر خير من عمل ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر"، وأما الأقوال الأخر فدعاوى معان باطلة، لا دلالة عليها من خبر ولا عقل، ولا هي موجودة في التنزيل" ا.هـ وقال ابن كثير في "تفسيره": "وليلة القدر تعدل في عبادتها عبادة ألف شهر" ا.هـ وقال: "وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، هو اختيار ابن جرير، وهو الصواب لا ما عداه" ا.هـ واختاره من المعاصرين الشيخ ابن عثيمين.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

ويقول عنهم: "لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون". ويقول: "لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون".

(من كل أمر) يجوز أن يكون المراد أن الإذن يكون في كل شيء، ويجوز أن يكون المراد أن هذا التنزل من أجل كل أمر أراد الله أن يقضيه.

(سلام هي) أي: هي خير كلّها ولا شر فيها. (حتى مطلع الفجر) أي: وهذا الخير يستمر إلى طلوع الفجر. [1]

وليلة القدر إنما تكون في رمضان خاصة دون سائر الأشهر، قال ابن كثير: "لا كما روي عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة من أنها توجد في جميع السنة، وتُرتجى في جميع الشهور على السواء" ا.هـ

من قام ليلة القدر فكأنه قام بعبادة الله تعالى ألف شهر، وألف شهر تعادل أكثر من ثمانين سنة، عبادة ثمانين سنة تضاف إلى ميزان حسنات العبد لأنه قام هذه الليلة، وهذا يدلّ على عظيم كرم الله تعالى، وقد جعل الله تعالى هذا الفضل كله لهذه الأمة لأن أعمارهم قصيرة، فعلى المسلم أن يجتهد في تحري ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، وهي أيام قليلة. لذلك كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا دخلت العشر شدّ مئزره، وأيقظ أهله، وأحيا الليل.

قال العلامة ابن القيم في "بدائع الفوائد": "لو كانت ليلة القدر ليلة واحدة في السنة، لقمت السنة كلها حتى أدركها، فما بالك بعشر ليال".

وفضل ليلة القدر باق إلى قيام الساعة وهذا قول جميع المسلمين، وخالف الشيعة الراوفض فقالوا: "رفعت إلى قيام الساعة". وهذا قول باطل على خلاف قول المسلمين من عهد الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم. [2]

من فوائد السورة: أن القرآن منزّل من الله تعالى، لأنه كلامه، منه بدأ وإليه يعود.

---

[1] قال العلامة ابن القيم في "بدائع الفوائد": "سميت ليلة القدر سلامًا أي سالمة من كل شر بل هي خير لا شر فيها" ا.هـ

[2] وأما قول النبي – صلى الله عليه وسلم –: "فرفعت وعسى أن يكون خيرًا لكم". فالمراد أن معرفة علم وقتها رفع، وأما فضلها فحاصل بدون تحديد ليلة خاصة بها، فهي تنتقل في العشر الأواخر لا تبقى في ليلة معينة من العشر.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة البينة (٩٨)

(مكية أو مدنية وآياتها ثمان)

بسم الله الرحمن الرحيم

(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين حتى تأتيهم البيّنة * رسول من الله يتلو صحفًا مطهّرة * فيها كتب قيّمة * وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة * وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، وذلك دين القيّمة * إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها، أولئك هم شر البرية * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أولئك هم خير البرية * جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا رضي الله عنهم، ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه *).

من مقاصد السورة بيان منزلة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وبيان أن مبعثه كان رحمة من الله للناس.

(لم يكن الذين كفروا من) للبيان وليس للتبعيض (أهل الكتاب) وهم اليهود والنصارى. (والمشركين) أي: عبدة الأصنام، وإنما فُرّق بينهم وبين أهل الكتاب لأن شرك الوثنيين من أصل دينهم، وليس طارئًا على دينهم كشرك أهل الكتاب، فهذا هو وجه التفريق بينهم، أما من حيث حكم الشرك فكلهم مشركون.

(منفكّين) خبر يكن، أي: زائلين عما هم عليه من اجتماعهم على الكفر. (حتى تأتيهم) أي: أتتهم (البيّنة) أي: الحجّة الواضحة، وهي محمد – صلى الله عليه وسلم – لأنه بيّن لهم الحقّ من الباطل. (رسولٌ من الله) بدل من البينة، وهو النبيّ – صلى الله عليه وسلم – (يتلو صحفًا مطهّرة) مصونة عن الباطل والتحريف (فيها كتبٌ) أي: آيات مكتوبة، اشتملت على أحكام عادلة، وأخبار صادقة، (قيّمة) مستقيمة، ليس فيها زيغٌ ولا اعوجاج. (وما تفرّق) اختلف (الذين أوتوا الكتاب) أهل الكتاب في محمد – صلى الله عليه وسلم – (إلا من بعد ما جاءتهم البينة) أي: الأدلة الواضحة التي تدلّ على ضلال أهل الكتاب، والمراد أن تفرّقهم لم يكن لاشتباه الأمر، بل بعد وضوح الحقّ، وظهور الصواب. (وما أُمروا) في الكتب المنزلة عليهم (إلا ليعبدوا الله) أي: أن يعبدوه فحذفت أن، وزيدت اللام (مخلصين له الدين) من الشرك فلا يعبدوا أحدًا من دون الله (حنفاء) مائلين على الشرك. (ويقيموا الصلاة) بأن يصلّوها بأركانها، وشروطها، ومستحبّاتها. (ويؤتوا الزكاة) في الوجه الذي أمر الله به (وذلك) أي: الحنيفية وإخلاص الدين لله تعالى، وإقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة هو (دين) الملة (القيّمة) المستقيمة، فلا ينبغي الرغبة عنه، ولا التفرّق فيه.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

(إن الذين كفروا من) بيانية (أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها) حال مقدّرة، أي: مقدرًا خلودهم فيها من الله تعالى (أولئك هم شرّ البرية) الخليقة.

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) الخليقة (جزاؤهم عند ربهم جنات عدنٍ) إقامة أي: يقيمون فيها ولا يتحوّلون عنها. (تجري من تحتها) تحت مساكنها (الأنهار خالدين فيها أبدًا) لأنها لا تفنى أبدًا، ولا يخرجهم منها أحدٌ، ولا يبغون عنها حولًا. (رضي الله عنهم) رضًا يليق بجلاله تعالى بفضله تعالى، ثم بسبب طاعتهم إياه (ورضوا عنه) بما شاهدوه من حُسن ثوابه (ذلك) الجزاء (لمن خشي ربه) خاف عقابه، فانتهى عن معصيته تعالى.

وهذا أمر لكنه بصيغة الخبر، أي: كونوا من المؤمنين الصالحين، ولا تكونوا من الكافرين.

سورة الزلزلة (٩٩)

(مكة، أو مدنية وآياتها ثمان).

بسم الله الرحمن الرحيم

(إذا زلزلت الأرض زلزالها * وأخرجت الأرض أثقالها * وقال الإنسان ما لها * يومئذ تحدث أخبارها * بأن ربك أوحى لها * يومئذٍ يصدر الناس أشتاتًا ليروا أعمالهم * فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره *).

من مقاصد السورة زجر النفوس الغافلة عن يوم القيامة، وبيان ما يحصل فيه من ميزان دقيق لأعمال الناس يوم القيامة.

(إذا زلزلت الأرض) اضطربت اضطرابًا شديدًا لقيام الساعة، ولم يذكر من زلزلها لأنه معلوم. (زلزالها) تحريكها الشديد المناسب لعظمتها (وأخرجت الأرض أثقالها) أخرجت موتاها بعد النفخة الثانية. (وقال الإنسان) الكافر بالبعث متحيّرًا من تلك الحالة(ما لها) أي: ماذا حصل لها ؟ (يومئذٍ) بدل من إذا، وجوابها (تحدث أخبارها) تخبر بما عمل عليها من خيرٍ وشرٍّ لأن الله هو الذي أعلمها، وهو الذي أمرها بذلك، لتشهد على العباد. (بأن) أي: بسبب أن (ربك أوحى لها) أي: أمرها بذلك، وفي الحديث: "تشهد على كل عبد أو أمة بكل ما عمل على ظهرها".

(يومئذ يصدر الناس) ينصرفون من موقف الحساب (أشتاتًا) متفرّقين، فآخذ ذات اليمين إلى الجنة، وآخذ ذات الشمال إلى النار. (ليُروا أعمالهم) أي: جزاءها من الجنة أو النار (فمن يعمل مثقال ذرة) زنة نملة صغيرة (خيرًا يره) ير ثوابه يوم القيامة. (ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره) ير جزاءه يوم القيامة، وقيل إن الذرّة هنا هو ما يرى في شعاع الشمس من الهباء.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة العاديات (١٠٠)

(مكية أو مدنية، وآياتها إحدى عشرة)

بسم الله الرحمن الرحيم

(والعاديات ضبحًا * فالموريات قدحًا * فالمغيرات صُبحًا * فأثرن به نقعًا * فوسطن به جمعًا * إن الإنسان لربّه لكنود * وإنه على ذلك لشهيد * وإنه لحبّ الخير لشديد * أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور * وحصل ما في الصدور * إن ربهم بهم يومئذٍ لخبيرٌ *).

من مقاصد السورة بيان صفة الإنسان في اهتماماته الدنيوية، وحرصه على الدنيا، ومنعه للخير، وقد أرادت السورة تصحيح مساره، ليرغب في الآخرة التي يقدم عليها.

(والعاديات) الخيل تعدو في الغزو وتضبح (ضبحًا) هو صوت أجوافها إذا عدت (فالموريات) الخيل توري النار (قدحًا) بحوافرها إذا سارت بالليل في الأرض ذات الحجارة، لشدّة وقعها على الحجارة. (فالمغيرات صُبحًا) الخيل تغير على العدوّ وقت الصبح بإغارة أصحابها. (فأثرن) هيّجن (به) بمكان عدوهن أو بذلك الوقت (نقعًا) غبارًا بشدة حركتهن (فوسطن به) بالنقع (جمعًا) من العدوّ، أي: صرن وسطه بعد هزيمتهم، وعطف الفعل على الاسم لأنه في تأويل الفعل أي: والخيول اللاتي عدون جريًا، فأورين النار، وأغرن على العدوّ. وفي ذلك بيان مكانة الخيل، وأهميتها في الإسلام، وفيها إشارة إلى منزلة الجهاد في سبيل الله، لحاجة الجهاد إلى الخيل.

(إن الإنسان) الكافر (لربّه لكنود) لكفور بالنعمة، يكثر من جحود نعمته تعالى. (وإنه على ذلك) أي: كنوده (لشهيدٌ) يشهد على نفسه بأفعاله، (وإنه لحبّ الخير) أي: المال (لشديد) الحبّ له، حيث يحرص على جمعه، ويتهالك على طلبه، ويبخل به.

(أفلا يعلم إذا بُعثر) أثير وأُخرج (ما في القبور) من الموتى، أي: بعثوا (وحُصّل) أفرز (ما في الصدور) أي: القلوب، حُصّل ما فيها من الخير والشرّ. (إن ربهم بهم يومئذٍ لخبيرٌ) لعالم بكلّ شيء يتعلّق بهم، فيجازيهم على أعمالهم. وهذه الجملة دلّت على مفعول يعلم، أي: إنا نجازيه على أعماله في الوقت المذكور، وخبيرٌ متعلّق بيومئذ، وهو تعالى خبير دائمًا، لكن خُصّ بيوم القيامة لأنه يوم المجازاة. والمراد أن الإنسان إذا علم بذلك فلا ينبغي أن يشغله حبّ المال عن شكر ربّه وعبادته والعمل للقائه.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة القارعة (١٠١)

(مكية، وآياتها إحدى عشرة آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

(القارعة * ما القارعة * وما أدراك ما القارعة * يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش * فأما من ثقلت موازينه * فهو في عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية * وما أدراك ما هيه * نار حامية *).

من مقاصد السورة قرع القلوب بتذكيرها بيوم القيامة.

(القارعة) القيامة التي تقرع القلوب بأهوالها (ما القارعة) تهويل لشأنها، وهما مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية خبر القارعة (وما أدراك) أعلمك (ما القارعة) زيادة تهويل لها، لأنها خارجة عن المعهود، وما الأولى مبتدأ وما بعدها خبره، وما الثانية وخبرها في محل المفعول الثاني لأدرى. (يوم) ناصبه فعل مضارع محذوف تقديره تقرع، دلّ عليه القارعة. (يكون الناس كالفراش المبثوث) المنتشر في كل مكان يسيرون في كل اتّجاه لشدة الهول، يموج بعضهم في بعض إلى أن يُدعوا للحساب. (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) كالصوف المندوف في خفة سيرها حتى تستوي مع الأرض.

ثم ذكر سبحانه انقسام الناس يوم القيامة إلى فريقين، وهم على سبيل الإجمال سعداء وأشقياء، فقال تعالى: (فأمّا من ثقلت موازينه) أي: أعماله الصالحة، بأن رجحت حسناته على سيئاته (فهو في عيشة) حياة (راضية) في الجنة، راضية بمعنى مرضيّة، أي: يرضاها.

(وأما من خفت موازينه) أي: أعماله الصالحة، بأن رجّحت سيئاته على حسناته (فأمّه) فمسكنه، وسمّاها أمًّا لأنه يؤوي إليها كالطفل الذي يؤوي إلى أمه، فيرضع منها، ويبقى في حضنها. (هاوية) وهي النار، سُمّيت كذلك لأنه يهوي إليها من أعلى. وقيل إن أمه أي: أم رأسه هاوية أي: ساقطة في النار. (وما أدراك ما هيه) أي: ما هاوية، هي (نارٌ حاميةٌ) شديدة الحرارة. وهاء (هيه) للسكت تثبت وصلًا، ووقفًا وفي قراءة تحذف وصلًا.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة التكاثر (١٠٢)

(مكية، وآياتها ثمان)

بسم الله الرحمن الرحيم

(ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر * كلّا سوف تعلمون * ثم كلّا سوف تعلمون * كلّا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونّها عين اليقين * ثم لتسألن يومئذ عن النعيم *).

من مقاصد السورة تذكير المنشغلين بالدنيا بالموت والحساب. (ألهاكم) شغلكم عن طاعة الله وطلب الآخرة (التكاثرُ) في المال وغيره، فابن آدم يحبّ الاستكثار، ولو أن لابن آدم واديًا من ذهب لتمنّى أن يكون له واديان، وحب الاستكثار شغله عن طاعة الله.

ولم يذكر الشيء المتكاثر فيه، ليدخل في ذلك كل تكاثر يشغل عن طاعة الله، كالتفاخر بالأموال، والأولاد، والرجال، والتنافس فيها، (حتى زُرتم المقابر) حتى أدرككم الموت فمُتم فدفنتم في المقابر. (كلّا) كلمة ردع، أي: ما كان لكم أن تنشغلوا بذلك. (سوف تعلمون) عاقبة ذلك الانشغال عند النزع، ثم في القبر، ثم عند الوقوف بين يدي الله تعالى. (ثم كلّا سوف تعلمون) سوء عاقبته. (كلّا) حقًّا (لو تعلمون) أنكم مبعوثون بعد الموت، ومحاسبون على أعمالكم (علم اليقين) ما اشتغلتم به. والله (لترونّ الجحيم) النار يوم القيامة. جواب قسم محذوف، وفعل "ترى" حذف منه لام الفعل وعينه، وألقيت حركتها على الراء (ثم لترونّها) مشاهدة يقين لا شكّ فيه. (عين اليقين) لترون الجحيم الرؤية التي هي نفس اليقين، وهي المشاهدة والرؤية بأعينكم. (ثم لتسألُنّ) حذف منه نون الرفع لتوالي النونات، وواو ضمير الجمع لالتقاء الساكنين (يومئذ) يوم رؤيتها (عن النعيم) لأنه هو الذي ألهاكم عن العمل للآخرة، والسؤال سيكون عن الصحة، والفراغ، والأمن، والمطعم، والمشرب، وغير ذلك. وقال مجاهد: "عن كل لذّة من لذات الدنيا". قال ابن كثير: "وقول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال".

من فوائد السورة: خطر التباهي، والتفاخر بالأموال، والأولاد، وفيها أن المقابر مكان زيارة، سرعان ما ينتقل منها الناس إلى الدار الآخرة، ففيه إشارة إلى البعث، ومن هنا تعلم خطأ من يصف القبر بأنه المثوى الأخير.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة العصر (١٠٣)

(مكية أو مدنية، وآياتها ثلاث)

بسم الله الرحمن الرحيم

(والعصر * إن الإنسان لفي خُسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر *).

من مقاصد السورة دعوة الإنسان إلى الاهتمام بمصيره، وبيان أنه لا ينجو من الخسران إلا من حقّق الإيمان، والعمل الصالح. (والعصر) قيل: هو صلاة العصر، وقيل: هو ما بعد الزوال إلى الغروب، وقيل هو الدهر، وهو اختيار ابن كثير، وهو الصحيح، لأنه محلّ أفعال العباد، وهذا أنسب لموضوع السورة.

(إن الإنسان) جنس الإنسان، فالمراد به العموم، بدليل الاستثناء، والاستثناء معيار العموم، وبدليل دخول أل الاستغراقية. (لفي خسر) هلاك، والمراد خسارة حياته. والخسارة: هي ذهاب رأس المال في التجارة.

وجاء بفي المفيدة للظرفية لإفادة أن الخسارة أحاطت به من كلّ جانب. فمن نجا من الهلاك فقد خرج عن الأصل، لذلك يقول الله تعالى: "لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصحاب الجنة هم الفائزون". فلم يقل أصحاب النار هم الخاسرون، إنما خصّ الفائزين لأنهم خرجوا عن الأصل، وقال بعض السلف: "لا تسأل عمن هلك كيف هلك، لكن سل عمن نجا كيف نجا".

وقد أكّد خسارة الإنسان في حياته بثلاثة مؤكّدات: أحدها: القسم. والثاني: حرف التوكيد إن. والثالث: اللام الواقعة في خبر إن. وإنما تواردت هذه المؤكّدات لأن بعض الكفار يكذّب بذلك، فيقول: "ولئن رُددت إلى ربّي لأجدن خيرًا منها منقلبًا".

(إلا) حرف استثناء، والاستثناء متصل، أي: إلا طائفة من الناس فليسوا في خسران وهم: (الذين آمنوا) حقّقوا الإيمان، والإيمان: قول، وعمل، واعتقاد. (وعملوا الصالحات) صفة لمفعول به محذوف تقديره "وعملوا الأعمال الصالحات". وذكر الأعمال الصالحة من باب عطف الخاص على العام لتوكيده، وبيان أهميته. كقوله: "حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى". (وتواصوا) على وزن تفاعلوا، أي: أوصى بعضهم بعضًا (بالحقّ) الذي جاء به النبيّ – صلى الله عليه وسلم – من عند الله. (وتواصوا) أوصى بعضهم بعضًا (بالصبر) على فعل الطاعات، والصبر على ترك المعاصي، والصبر على الأقدار.

وبالحق تندفع الشبهات، وبالصبر تندفع الشهوات. وبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

بالإيمان والعمل الصالح يكمّل الإنسان بهما نفسه، وبالتواصي بالحقّ والتواصي بالصبر يكمّل الإنسان بهما غيره.

سورة الهمزة (١٠٤)

(مكية أو مدنية، وآياتها تسع)

بسم الله الرحمن الرحيم

(ويل لكل همزة لمزة * الذي جمع مالًا وعدده * يحسب أن ماله أخلده * كلّا لينبذن في الحطمة * وما أدراك ما الحطمة * نار الله الموقدة * التي تطلع على الأفئدة * إنها عليهم مؤصدة * في عمد ممددة *).

من مقاصد السورة تهديد المتعالين الساخري من أهل الإيمان. (ويلٌ) كلمة عذاب، أو واد في جهنم (لكلِّ هُمزة لُمزة) أي: كثير الهمز واللمز، أي: الغيبة، ونزلت السورة في الأخنس بن شريق لأنه كان كثير الوقيعة في الناس، وقيل: في أمية بن خلف، وقيل في الوليد بن المغيرة. ومع ذلك فلفظها على العموم في كل من اتصف بهذه الصفات.

واشتقاق الهمزة واللمزة من الهمز واللمز، وصيغة فعلة للمبالغة، واختلف في الفرق بين الكلمتين فقيل: الهمز في الحضور، واللمز في الغيبة، وقيل: بالعكس. وقيل: الهمز باليد والعين، واللمز باللسان، وقيل: هما سواء.

(الذي جمع) بالتخفيف، و"جمّع" بالتشديد (مالًا وعدّده) أحصاه، وجعله عدة لحوادث الدهر (يحسب) لجهله (أن ماله أخلده) جعله خالدًا لا يموت (كلّا) ردع، أي: ليس كما تصوّر هذا الجاهل، بل (لَيُنبذنّ) جواب قسم محذوف أي: ليُطرحن (في الحطمة) التي تحطم كلّ ما أُلقي فيها. (وما أدراك) أعلمك (ما الحطمة) التي تحطّم كلّ ما طرح فيها، وقد وضّحها بقوله: (نار الله الموقدة) المسعّرة (التي تطلع) تُشرف على الإفئدة، أو تنفذ من الأجسام (على الأفئدة) القلوب فتحرقها، وألمها أشد من ألم غيرها للطفها (إنها عليهم) جمع الضمير رعاية لمعنى كل (مُؤصدة) بالهمز وبالواو بدله، أي: مطبقة (في عَمَدٍ) بفتح الحرفين وبضمّهما، في تفسيرها أقوال:

أحدهما: – أن أبواب جهنم أغلقت عليهم، ثم مدت على أبوابها عمد تشديدًا في الإغلاق، وهو على هذا متعلق بمؤصدة.

قال ابن القيم: "قد جعلت العمد ممسكة للأبواب من خلفها كالحجر العظيم الذي يجعل خلف الباب، قال مقاتل: يعني أبوابها عليهم مطبقة فلا يفتح لها باب ".

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

والثاني: – أنهم موثوقون مغلولون في العمد، فالمجرور على هذا في موضع خبر مبتدأ مضمر تقديره: هم موثوقون في عمد.

والثالث: – وقيل: في عمد: أي: أنهم يدخلون في عمد كالقصبة، مجوفة الداخل، وهو اختيار العلامة الشنقيطي.

قال الشيخ عطية محمد سالم في "تتمة أضواء البيان": "وكنت سمعت من الشيخ (أي: الشنقيطي) – رحمة الله تعالى علينا وعليه – في ذلك: أن العمد بمعنى القصبة المجوفة تضيق عليهم، كما في قوله: "وإذا ألقوا منها مكانًا ضيقًا مقرنين دعوا هنالك ثبورا". فيكون أرجح في هذا المعنى، وقد نصّ عليه في إملائه رحمة الله تعالى علينا وعليه" ا.هـ

(ممددة) صفة للعمد.

سورة الفيل (١٠٥)

(مكية، وآياتها خمس)

بسم الله الرحمن الرحيم

(ألم تر كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيرًا أبابيل * ترميهم بحجارة من سجّيل * فجعلهم كعصف مأكول *).

من مقاصد السورة إظهار قدرة الله على حماية بيته الحرام، وهو من الأمن الذي جعله الله فيه.

(ألم تر) هو استفهام تعجبي أي: اعجب كيف فعل ربك بأصحاب الفيل وهو أبرهة – ملك الحبشة في اليمن – وجيشه [1] ويجوز أن تكون الرؤية هنا بمعنى العلم، فيكون المعنى ألم تعلم، فإن النبي – صلى الله عليه وسلم – لم ير ذلك بنفسه، ولكنه سمع أخبارها المتواترة، وبقيت آثارها بعد ذلك. ويجوز أن تكون رؤية حقيقية، وهذا لمن أدرك هذه الحادثة.

(كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) واسم الفيل محمود أرسله النجاشي – ملك الحبشة – من الحبشة لذلك، وقد قيل: كانت هناك أفيال أخرى أتوا بها لهدم الكعبة، ولكن القرآن اقتصر على ذكر فيل واحد من الفيلة، فإن كانت هناك فيلة أخرى، فيكون القرآن قد اقتصر على فيل واحد، إما لأنه أعظمها حجمًا، وإما لأن المراد ذكر الجنس لا العدد.

---

[1] قال شيخ الإسلام في "الجواب الصحيح": "وهذا يقتضي أن هذا قد وقع وعلم به الناس ورأوه، وقد قررهم على ذلك لما فيه من الدلالة والبيان والإنعام على الخلق".

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

وأصحاب الفيل هم أبرهة الحبشي ملك اليمن وجيشه، بنى بصنعاء كنيسة ليصرف إليها الحجاج عن مكة، فأحدث رجل من كنانة فيها وتغوّط، ولطخ قبلتها بالعذرة احتقارًا لها، فحلف أبرهة ليهدمن الكعبة، فجاء مكة بجيشه على أفيال اليمن مقدمها محمود، وحين توجهوا لهدم الكعبة أرسل الله عليهم ما قصه علينا في قوله: (ألم يجعل) أي: جعل (كيدهم) في هدم الكعبة (في تضليل) أي: ألم يجعل إعدادهم العُدّة، وتجهيزهم الجيش لهدم الكعبة في ضياع وخسارة، لا فائدة فيه.

(وأرسل عليهم) من السماء (طيرًا أبابيل) جماعات جماعات، وقيل: جاءت من البحر، (ترميهم بحجارة) من مثل الحُمُّص والعدس. (من سجّيل) طين مطبوخ، كل طائر يحمل ثلاثة أحجار، حجرًا بمنقاره، وحجرين برجليه، لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، وكان ذلك في النهار لترى العرب هذه الآية العظيمة، فكانت قريش وغيرهم من العرب ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة، فهلك معظم الجيش، وأدبر بعضهم، ومرض أبرهة.

(فجعلهم كعصف مأكول) أي: فصيرهم الله كبقايا الزرع المأكول الذي تحوّل بعد الخضرة والنضرة، إلى أن صار ملقى على الأرض يداس بالأقدام. وكان هذا عام مولد النبي – صلى الله عليه وسلم –. [1]

من فوائد السورة: أن الله هو الذي ينصر دينه، ويعاقب أعداءه، وفيها بيان مكانة البيت الحرام خصوصًا ومكة عمومًا، وفيها التعريض بقريش حيث كفرت بنعم عظيمة من نعم الله عليهم، فقد سلم البيت الحرام وأنقذه من المعتدين، ومع هذا فهم لا يزالون يعبدون غيره، وفيه أن من أراد سوءا عامله الله بنقيض قصده، فأبرهة أراد أن يهدم الكعبة، وتتحدث الناس عن ذلك، فجعله الله عبرة، وتحدث الناس عن قصة الخزي الذي حصل له.

---

[1] فإن قيل: قد أهان الله من أراد الكعبة البيت الحرام بسوء، فلماذا لم يحصل مثل هذا عندما هاجم القرامطة البيت الحرام، وقتلوا الحجيج، وسرقوا الحجر الأسود ؟ والجواب: أن وضع الناس في الجاهلية يختلفون عن وضعهم في الإسلام، فالناس في الجاهلية كانوا يحتاجون إلى معرفة منزلة البيت الحرام وهيبته، بخلاف الناس بعد الإسلام فإنهم يعرفون منزلة البيت الحرام، وهيبته فلم يحتاجوا إلى ذلك.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة قريش (١٠٦)

(مكية أو مدنية، وآياتها أربع)

بسم الله الرحمن الرحيم

(لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف *).

من مقاصد السورة الامتنان على قريش، وما يلزمهم من الشكر تجاه النعمة. (لإيلاف) لأجل عادة، (قريش) وهم ولد النضر بن كنانة الذين يسكنون مكة. (إيلافهم) تأكيد وهو مصدر آلف بالمد، (رحلة الشتاء) إلى اليمن (و) رحلة (الصيف) إلى الشام في كل عام يستعينون بالرحلتين للتجارة على المقام بمكة لخدمة البيت، الذي هو فخرهم. والمراد أن الله يمنّ على قريش أنهم جعلهم يألفون هاتين الرحلتين، وسهّلهما عليهم.

(فليعبدوا) تعلّق به لإيلاف والفاء زائدة (ربّ هذا البيت) الحرام (الذي) لأجله (أطعمهم) سبحانه (من جوع) كان يصيبهم لعدم الزرع بمكة. (و) لأجله (آمنهم من خوف)، كانت العرب تغير بعضها على بعض، فأمّن الله قريشًا فلا يغير عليها أحدٌ، فهم في حرم آمن، ويتخطّف الناس من حولهم، بسبب ما وضع الله في قلوب العرب من تعظيم الحرم وسكانه، ومما أمنهم به كذلك حمايته لبيته الحرام من جيش الفيل.

سورة الماعون (١٠٧)

(مكية أو مدنية أو نصفها ونصفها، وآياتها ست أو سبع)

بسم الله الرحمن الرحيم

(أرأيت الذي يكذّب بالدين * فذلك الذي يدعّ اليتيم * ولا يحضّ على طعام المسكين * فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون * ويمنعون الماعون *).

من مقاصد السورة بيان ما عليه الكفار من الغلظة، وتحذير المؤمنين من هذه الأخلاق.

(أرأيت الذي يكذّب بالدين) بالحساب والجزاء، أي: هل عرفته ؟! وإن لم تعرفه: (فذلك) بتقدير هو بعد الفاء (الذي يدعّ اليتيم) أي: يدفعه بعنف عن حقّه، وقد كان عرب الجاهلية لا يورّثون النساء ولا الصبيان. (ولا يحضّ) ولا يحثّ نفسه، ولا غيره (على طعام) أي: إطعام (المسكين). بُخلًا بالمال وقسوةً على المحتاجين، نزلت في العاصي بن وائل، أو الوليد بن المغيرة.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

ثم انتقل القرآن إلى المفرّطين بالصلاة، فقال: (فويل) هلاك، أو وعيد بالعذاب (للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون) غافلون يؤخّرونها عن وقتها. (الذين هم يراؤون) في الصلاة وغيرها، لا يرجو من أدائها ثوابًا، وإذا كان هذا فيمن يصلّي، فكيف بمن لا يصلّي أصلًا. (ويمنعون الماعون) وهو العارية كالدلو، والفأس، والقدر، والقصعة، وما لا يمنع كالماء، والملح، وغيرها، مع إمكان إعطائها للمحتاج بدون ضرر.

من فوائد السورة: بيان غلظة الكافر، وبيان فضل إعارة الماعون.

سورة الكوثر (١٠٨)

(مكية أو مدنية، وآياتها ثلاث)

بسم الله الرحمن الرحيم

(إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربّك وانحر * إن شانئك * هو الأبتر).

من مقاصد السورة بيان ما منّ الله به على النبيّ – صلى الله عليه وسلم – من علوّ المنزلة، والأجور العظيمة يوم القيامة له، ثم للمؤمنين.

(إنا أعطيناك) أكرمناك يا محمد بنهر (الكوثر) وهو نهرٌ في الجنة أكرم الله به النبيّ – صلى الله عليه وسلم – وأمته، وله ميزابان يصبّان في حوض النبيّ – صلى الله عليه وسلم – في أرض المحشر، وترد أمته على حوضه.

(فصلّ لربك وانحر) فأدّ شكر هذه النعم العظيمة بأن تجعل صلاتك لله تعالى ونحرك لله تعالى، وهذا هو الصحيح. وقيل: إن المراد فصلّ لربك صلاة عيد النحر، ثم انحر نسكك، والصحيح هو الأوّل للعمومات.

(إن شانئك) أي: مبغضك (هو الأبتر) المنقطع عن كلّ خير، أو المنقطع العقب، نزلت في العاصي بن وائل سمّى النبي – صلى الله عليه وسلم – أبتر عند موت ابنه القاسم.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة الكافرون (١٠٩)

(مكية أو مدنية، وآياتها ستّ)

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين *).

نزلت هذه السورة لما قال رهط من المشركين لرسول الله – صلى الله عليه وسلم –: تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة.

من مقاصد السورة تقرير توحيد العبادة، والبراءة من الشرك ومفاصلة أهله.

(قل يا أيها الكافرون) بالله (لا أعبد) في الحال (ما تعبدون) من الأصنام، (ولا أنتم عابدون) في الحال (ما أعبد) وهو الله تعالى وحده، (ولا أنا عابدٌ) في الاستقبال (ما عبدتم) (ولا أنتم عابدون) في الاستقبال (ما أعبدُ) أي: من أعبد، وإطلاق "ما" على الله على وجه المقابلة، (لكم دينكم) الشرك (ولي دين) الإسلام قبل أن يؤمر بالحرب، وحذف القراء السبعة ياء الإضافة وقفًا ووصلًا، وأثبتها يعقوب في الحالين.

قيل: إنما نفى الله عبادتهم في المستقبل لأن الله علم منهم أنهم لا يؤمنون، وقيل: إنما نفى صحة عبادتهم لأن عبادتهم لله عبادة غير صحيحة ما داموا على الشرك، فإذا تركوا الشرك صحّت عبادتهم.

وهل في الآيات تكرير ؟! فيها قولان، الصحيح أنه ليس فيها تكرير، لأن المراد بالنفي الأوّل غير المراد بالنفي الثاني.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة النصر (١١٠)

(نزلت بمنى في حجة الوداع فتُعدّ مدنية، وهي آخر ما نزل من السور، وآياتها ثلاث)

بسم الله الرحمن الرحيم

(إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا * فسبح بحمد ربّك واستغفره إنه كان توابا *).

من مقاصد السورة الإشارة إلى انتشار الإسلام، وما ينبغي فعله جزاء هذه النعمة، كما تشير إلى قرب أجل النبيّ – صلى الله عليه وسلم –.

(إذا جاء نصر الله) وذلك بأن نصر الله نبيه – صلى الله عليه وسلم – على أعدائه (والفتح) فتح مكة. (ورأيت الناس يدخلون في دين الله) أي: الإسلام (أفواجًا) جماعات بعدما كان يدخل فيه الناس واحدًا واحدًا، وقد حصل ذلك بعد فتح مكة جاءه العرب من أقطار الأرض طائعين، وربما تدخل القبيلة كلّها في الإسلام، وذلك أنهم كانوا يقولون إذا انتصر محمد على قريش أهل الحرم فهذا يدلّ على أنه على الحقّ.

إذا حصل ذلك فهذا علامة على قرب انتهاء مهمّتك في تبليغ الدعوة (فسبّح بحمد ربك) أي: متلبّسا بحمده، وفيه الجمع بين التسبيح والحمد، فالتسبيح فيه التعجّب من حصول هذا الخير العظيم الذي يسّره الله تعالى، والحمد فيه الشكر باللسان على جميل صنعه تعالى. (واستغفرْه) أي: واستغفر الله تواضعًا منك لربّك، واستقصارًا لعملك بجانب عظمة الربّ. (إنه كان توّابًا) وكان – صلى الله عليه وسلم – بعد نزول هذه السورة يكثر من قول: سبحان الله وبحمده، استغفر الله وأتوب إليه، وعلم بها أنه قد اقترب أجله، وكان فتح مكة في رمضان سنة ثمان، وتُوفّي – صلى الله عليه وسلم – في ربيع الأول سنة عشر.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة المسد (١١١)

(مكية، وآياتها خمس)

بسم الله الرحمن الرحيم

(تبّت يدا أبي لهب وتبّ * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى نارًا ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد *).

من مقاصد السورة بيان أن الكفر لا ينفع معه النسب والجاه، والمال، والولد.

لما دعا النبي – صلى الله عليه وسلم – قومه وقال: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال عمّه أبو لهب – واسمه عبد العزى بن عبد المطلب –: تبًّا لك ألهذا دعوتنا" فنزل (تبّت) خسرت (يدا أبي لهب) أي: جملته، وعبّر عنها باليدين لأن أكثر الأفعال تزاول بهما، وهذه الجملة دعاء (وتبّ) وخسر هو، وهذه خبر كقولهم: أهلكه الله، وقد هلك، ولما خوّفه النبيّ بالعذاب فقال: "إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا فإني أفتدي منه بمالي وولدي". فنزل: (ما أغنى عنه ماله وما كسب) أي: وكسبه، أي: ولده ما أغنى بمعنى يغني، جيء به بالماضي كأن العذاب قد نزل عليه (سيصلى نارًا ذات لهب) أي: تلهب، وتوقد، فهي مآل تكنيته لتلهب وجهه إشراقًا وحمرة.

(وامرأته) أي: هي كذلك ستدخل جهنّم، معطوف على ضمير يصلى سوغه الفصل بالمفعول وصفته، وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان. (حمالة) بالرفع والنصب (الحطب) الشوك والسعدان تلقيه في طريق النبيّ – صلى الله عليه وسلم – (في جيدها) عنقها (حبلٌ من مسد) أي: ليف يفتلون منه الحبال، كانت لها قلادة فقالت واللات والعزى لأنفقنّها في عداوة محمد، فكان جزاؤها أن تُجعل تلك القلادة حبلًا في عنقها.

وجملة "حبلٌ من مسد" حال من حمالة الحطب الذي هو نعت لامرأته أو خبر مبتدأ مقدر.

من فوائد السورة: فيها دليلٌ من دلائل النبوّة، لأنها حكمت على أبي لهب بالموت على الكفر، ومات بعد عشر سنين على الكفر، وفيها صحة أنكحة الكفار لأن الله وصف المرأة بأنها امرأته، وفيها بيان كثرة الأذى الذي لقيه النبيّ – صلى الله عليه وسلم – من المشركين حتى من قرابته، ومخالفة قرابته له – صلى الله عليه وسلم – دليلٌ على صدقه، لأنه لو آمنوا به كلّهم لقال الناس: "إن بني هاشم يريدون المُلك".

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

سورة الإخلاص (١١٢)

(مكية أو مدنية، وآياتها أربع)

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل هو الله أحدٌ * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كُفُوًا أحدٌ *).

سميت في أكثر المصاحف بسورة الإخلاص، واشتهر هذا الاسم لاختصاره، وجمعه معاني هذه السورة، لأن فيها تعليم الناس إخلاص العبادة لله تعالى، أي: سلامة الإعتقاد من الإشراك بالله غيره في الإلوهية.

من مقاصد السورة إثبات الله تعالى لنفسه تفرّده بالكمال، وتنزّهه عن النقائص.

والله تعالى قد تكلّم عن نفسه في هذه السورة الكريمة بما يليق به من صفات الكمال، ونزّه نفسه عما لا يليق به من صفات النقص، وما تكلّم الله به عن نفسه فإنه مطلوب من العبد أن يعتقده ويؤمن به.

(قل) قد افتتحت بفعل الأمر "قل" لإظهار العناية بما بعد هذا الأمر من توجيهات حكيمة، ولتلقينه – صلى الله عليه وسلم – الرد على المشركين الذين سألوه أن ينسب لهم الله تعالى.

(هو الله) أي: لا إله مستحقٌّ للعبادة غيره، فالله خبر هو، وأحدٌ بدل منه، أو أنه خبرٌ ثان.

(أحدٌ) أي: واحدٌ، ووصف الله تعالى بأنه واحد له ثلاثة معان كلها صحيحة في حقّ الله تعالى:

أحدها: – أنه واحد لا ثاني معه فهو نفي للعدد.

والثاني: – أنه واحد لا مثيل له، ولا شريك له. والثالث: – أنه واحد لا يتبعّض.

(الله الصمد) مبتدأ وخبر، وفي معنى الصمد ثلاثة أقوال: أحدها: – أن الصمد هو الذي يصمد إليه في الأمور أي يلجأ إليه. والثاني: – أنه لا يأكل ولا يشرب فهو كقوله: "وهو يطعم ولا يطعم". والثالث: – أنه الذي لا جوف له.

وهذه المعاني كلها حقٌّ، لكن إن كانت كذلك من حيث اللغة فهي ثابتةٌ كلّها.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

والخلاصة أن الصمد هو الربّ الذي بلغت صفاته كلّها الغاية في كمالها، وهو المنزّه عن النقائص كلّها، وهو المقصود في الحوائج على الدوام [1]، ولا يحتاج إلى شيء.

(لم يلد) ليس والدًا لأحد لأن الولد مثل أبيه، والمماثل منتفٍ في حقّ الله تعالى، ولأن الولد بضعة من أبيه، والتجزئة منتفيةٌ في حقّ الله تعالى، ولأن الوالد يحتاج الولد لخدمته، وليحمل اسمه، والحاجة منتفيةٌ في حقّ الله تعالى، ولأن العبودية تنافي البنوّة، ولأن الولد تسبقه زوجة أو عشيقة، وذلك منتفٍ في حقّ الله تعالى.

(ولم يولد) أي: ليس له والد، لأنه لو كان ولدًا لأحد، للزم غيابه قبل ولادته، وللزوم أن يكون محدثًا، وللزوم أن له خالقٌ أخرجه من العدم، وللزم أن يكون هناك أحدٌ قبله، وللزوم التسلسل.

فإذا علمنا أن الإله لا يمكن أن يكون مولودًا، علمنا بطلان قول النصارى في اعتقادهم أن المسيح إله، وبطلان اعتقادهم أن الله له ولد.

(ولم يكن له كُفُوًا أحدٌ) أي: ليس له مكافئ، ولا مماثل، ولا نظير، ولا شريك، والأدلة في نفي المماثلة كثيرة ومعلومة. قال تعالى: "ليس كمثله شيٌ" وقال: "فلا تجعلوا لله أندادًا". وقال: "فلا تضربوا لله الأمثال"، وقال: "هل تعلم له سميًّا".

وكلمة "له" متعلّق بكلمة كفوًا، وقُدّم عليه لأنه محطّ القصد بالنفي، وأخّر أحد وهو اسم يكن عن خبرها رعاية للفاصلة.

ويستفاد نفي الشريك والمثيل، ونفي الولد من وصف الله لنفسه بالأحدية والصمدية.

من فوائد السورة: الرد على اليهود الذين يقولون إن العزير ابن الله، والرد على النصارى الذين يقولون إن المسيح ابن الله، والرد على المشركين الذين يقولون: إن الملائكة بنات الله.

وفي السورة أن اسم الصمد – وما يدلّ عليه من الصفات – ينافي أن يسأل العبد غير الله، وأن يدعو غيره.

وفيه أن الجمع بين الأحد والصمد في غاية المناسبة، فاسم الصمد يدلّ على الربّ العظيم المستوجب لصفات الكمال، واسم الأحد يستوجب أنه ليس له مثيل ولا شريك. وفي هذين

---

[1] واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معان كلها صحيحة في حق الله تعالى: أحدها: أنه واحد لا ثاني معه فهو نفي للعدد.

والثاني: – أنه واحد لا نظير له، ولا شريك له كما تقول: فلان واحد عصره أي: لا نظير له.

والثالث: – أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعّض.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

الاسمين ردّ على المعطلة والمشبّهة، لأن فيهما إثبات تفرّد الله تعالى بالأسماء والصفات اللائقة به تعالى.

وهذه السورة الكريمة تضمّنت الرد على المشركين وأهل الكتاب الذين يقولون، بالتثليث، وغيرهم من أصحاب الأقاويل الفاسدة.

سورة الفلق (١١٣)

(مكية أو مدنية، وآياتها خمس)

١ ــ قال ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم": "وهذا مشهورٌ عند كثيرٍ من القراء والفقهاء: أن ابن مسعود كان لا يكتب المعوّذتين في مصحفه، فلعلّه لم يسمعهما من النبي – صلى الله عليه وسلم –، ولم يتواتر عنده، ثم لعلّه قد رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة، فإن الصحابة، رضي الله عنهم، كتبوهما في المصاحف الأئمة، ونفذوها إلى سائر الآفاق كذلك، ولله الحمد والمنة" ا.هـ

٢ ــ من مقاصد سورة الفلق التحصّن والاعتصام بالله من الشرور الظاهرة [١]، ومن مقاصد سورة الناس التحصّن والاعتصام من الشرور الباطنة.

من فضل هاتين السورتين: أنهما لم ير مثلهما كما في حديث عقبة بن عامر رواه مسلم، وأنه لا يتعوّذ المتعوّذ بمثلهما، وروى الترمذي، والنسائي، وابن ماجه من حديث أبي نضرة، عن أبي سعيد: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يتعوّذ من أعين الجان، وعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما، وترك ما سواهما". وقال الترمذي: "حديث حسن".

د ــ لما قام لبيد اليهودي هو وبناته بسحر النبيّ – صلى الله عليه وسلم – في وترٍ به إحدى عشرة عقدة، فأعلمه الله بذلك وبمحلّه، فأنزل الله المعوّذتين – سورة الفلق وسورة الناس – إحدى عشر آية بعدد العقد، وأمر بالتعوّذ بالسورتين، فكان كلّما قرأ آية منها انحلّت عقدة، ووجد خِفّة حتى انحلت العقد كلّها، وقام كأنما نشط من عقال.

---

[١] قال ابن عطية: قال بعض الحذّاق: هذه السورة خمس آيات، وهي مراد الناس بقولهم للحاسد الذي يخاف منه العين: "الخمسة على عينك".

قلت: لكن هذا لا ينفع، ولا يغني عن التعوّذ بقراءتهما.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل أعوذ بربّ الفلق * من شر ما خلق * ومن شرّ غاسق إذا وقب * ومن شرّ النفاثات في العقد * ومن شرّ حاسد إذا حسد *).

(قل أعوذ) ألتجئ وأحتمي (برب الفلق) هو عامّ لكل ما يفلقه الله، من فلق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأولاد، والحب والنوى وغير ذلك. وقيل: هو الصبح ورجّحه ابن كثير، وقال: "هو قول البخاري في "صحيحه"، ولعلّ هذا أقرب إلى الصواب لأمور أحدها أنه جاء في مقابلة الليل.

(من شرّ ما) موصولة (خلق) والمراد من شرّ كلّ مخلوق له شرّ، قال ابن القيّم وليس المراد من شرّ كلّ المخلوقات فإن بعض المخلوقات خيرٌ محض وليس فيها شرّ.

فالمراد من شرّ كلّ مخلوق له شرّ، من حيوان مكلّف، وغير مكلّف، وجماد كالسمّ وغير ذلك.

(و) أعوذ به تعالى (من شرّ غاسقٍ) الليل، ومنه غسق الليل. (إذا وقب) إذا أظلم، والمعنى ومن الشرور التي تظهر في الليل إذا أظلم.

ويدخل القمر في الغاسق إذا وقب، وجاء فيه حديث عائشة: "أن النبيّ – صلى الله عليه وسلم – نظر إلى القمر فقال استعيذي بالله من هذا فإنه الغاسق إذا وقب" رواه أحمد والترمذي. [1]

(و) أعوذ بالله (من شرّ) السواحر (النفاثات) اللواتي ينفثن (في العقد) التي تعقدها في الخيط، فتنفخ فيها بشيء تقولُه مع ريق دون التفل [2]، كالذي فعلته بنات لبيد الاعصم، والاستعاذة من النفاثات هو الاستعاذة من عملهن وهو السحر، ومما يصيب من الشرّ عند نفثهن، ومن خداعهن، ومن فتنتهن.

والقول الثاني: – أن النفاثات هن الأرواح والأنفس النفاثات، ولسن النساء السواحر، لأن تأثير السحر إنما يكون من جهة الأرواح والأنفس الخبيثة، وهو اختيار العلامة ابن القيّم في "بدائع

---

[1] حسّنه الترمذي، والحافظ ابن حجر، والعلامة الألباني.

[2] وهو أن ينفث على عقد تعقد في خيط أو نحوه على اسم المسحور فيضرّه ذلك، وحكى ابن عطية أنه حدّثه ثقة أنه رأى عند بعض الناس بصحراء المغرب خيطًا أحمر قد عقدت فيه عقد على فصلان – وهي أولاد الإبل – فمنعها بذلك من رضاع أمهاتها، فكان إذا حلّ عقدة جرى ذلك الفصيل إلى أمه فرضع في الحين.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

الفوائد"، وذكر أن بنات لبيد الاعصم لم يسحرن النبيّ – صلى الله عليه وسلم – وإنما الذي سحره هو أبوهن لبيد.

(و) أعوذ بالله (من شر حاسد إذا حسد) أي: إذا أظهر حسده، وعمل بمقتضاه، كلبيد المذكور من اليهود الحاسدين للنبيّ – صلى الله عليه وسلم –.

والثلاثة المذكورة – وهي الغاسق والنفاثات والحسد – جاءت بعد قوله: "من شرّ ما خلق" وهو من باب الخاص بعد العام، وذلك لشدة شرّها.

وقد عرّف النفاثات بالألف واللام، بينما نكّر ما قبله وما بعده، فنكّر الغاسق، ونكّر الحاسد، ليفيد أن كل نفاثة شريرة، بخلاف الغاسق والحاسد فإن شرّهما في بعض دون بعض.

سورة الناس (١١٤)

(مكية أو مدنية وآياتها ست)

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل أعوذ برب الناس * ملك الناس * إله الناس * من شر الوسواس الخناس * الذي يوسوس في صدور الناس * من الجنّة والناس *).

من مقاصد السورة التحصّن، والاعتصام بالله سبحانه من الشرور الباطنة، والسورة السابقة اشتملت على التحصّن من الشرور الظاهرة.

(قل أعوذ) التجئ وأحتمي (بربّ الناس) وإضافة الربوبية إلى الناس مقتضية لخلقهم وتدبيرهم وتربيتهم، وجلب مصالحهم ودفع مضارّهم.

وهو تعالى خالق الناس وغيرهم، لكنهم خُصّوا بالذكر تشريفًا لهم، ومناسبة للاستعاذة من شر الموسوس في صدورهم.

(ملك الناس) وإضافة المُلك إلى الناس مقتضية لتصرّفه التام فيهم، فقدرته فيهم نافذة، وسلطته عليهم كاملة، فهو ملكهم الذي يرجعون إليه ويعتصمون به.

(إله) المستحقّ لعبادة (الناس) وغيره من الآلهة باطلة، فكما وحّدوه بالخلق والملك والتدبير فليوحدوه بالعبادة لأنه مستحقّها، ولا يستحقّها غيره.

ومن كان موصوفًا بهذه المعاني العظيمة – التي اشتملت عليها هذه الأسماء المذكورة – استحقّ أن تفزع إليه الخلائق عند خوفها من الضرر. وقد قدّم الربوبية لعمومها لكل مربوب، وأخّر الألوهية لخصوصها، فهو إله من عبده ووحّده، ووسّط صفة الملك لأن ملكه لهم تابعٌ لخلقه إياهم.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)

و"ملك" و"إله" بدلان، أو صفتان، أو عطفا بيان، وأظهر المضاف إليه فيهما فلم يقل رب الناس ومليكهم وإلاههم زيادة للبيان، ولم يعطف الكلام بالواو العاطفة حتى لا تفهم المغايرة، والمقصود الاستعاذة بمجموع هذه الصفات حتى كأنها صفة واحدة.

(من شرّ الوسواس) هو الشيطان لأنه قال بعدها: "الذي يوسوس في صدور الناس". وسُمي الشيطان بالوسواس لكثرة وسوسته، ووصفه بالوسواس دون غيرها من الصفات، لأنها أعظم شروره وأقواها تأثيرًا.

والوسوسة: هي كلام خفي يشتمل على تزيين الشرّ أو الحثّ عليه، يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت يتعلّق به.

والاستعاذة هنا من الوسواس الذي هو الشيطان، ولم يقل من شرّ وسوسته، لتكون الاستعاذة هنا عامّة، تشمل الاستعاذة من شرّه كلّه، لا من وسوسته فقط.

(الخنّاس) صفة للوسواس، لأنه يخنس ويتأخر عن القلب كلما ذُكر الله. ولذلك وصف تعالى الكواكب إذا اختفت بأنها "الخنّس".

(الذي يوسوس في صدور الناس) إذا غفلوا عن ذكر الله. وإنما ذكر الله الصدور ولم يقل القلوب لأن القلب بعض ما في الصدر، فالقلب في الصدر بمنزلة البيت في ساحة البيت.

وفي الآية دليل على قدرة شياطين الجنّ على الدخول في جوف الإنسان، وهذا أمرٌ مجمع عليه.

(من الجِنّة والناس) فيه تفسيران: أحدهما: – أن قوله تعالى: "من الجنة والناس" بيان للشيطان الموسوس أنه جني وإنسي، كقوله تعالى: "شياطين الإنس والجن" [1]، وهو اختيار العلامة ابن القيّم.

والثاني: – أن قوله تعالى: "من الجنة والناس" بيان للذي يوسوس في صدره. وقد ضعّفه العلامة ابن القيّم.

إلى هنا انتهى ما أردنا كتابته من تفسير مختصر لجزء عمّ، فلله الحمد والمنة

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله

[1] واعترض عليه بأن الناس لا يوسوسون للناس في صدورهم، إنما يوسوس الجن في صدورهم، وأجيب بأن الناس يوسوسون أيضًا لكن بآذانهم، ثم تصل وسوستهم إلى القلب، وتثبت فيه، والله أعلم.

Create PDF files without this message by purchasing novaPDF printer (http://www.novapdf.com)